

سُورَةُ الْحَجِّ

مِنْ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ إِلَى سُجُودِ الْأُمَّةِ
رَحْلَةً فِي التَّوْحِيدِ وَالشَّعَائِرِ وَالْجِهَادِ وَالْعُبُودِيَّةِ



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْحَجِّ

مِنْ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ إِلَى سُجُودِ الْأُمَّةِ
رِحْلَةً فِي التَّوْحِيدِ وَالشَّعَائِرِ
وَالْجِهَادِ وَالْعُبُودِيَّةِ

رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

ليست سورة الحج حديثاً عن شعيرة منفصلة عن الحياة، ولا وصفاً لرحلة تقطعها الأجساد إلى بيت الله ثم تعود منها كما ذهبت؛ إنها سورة الحج الأكبر: حجّ الإنسان من غفلته إلى يقظته، ومن اضطراب الأرض إلى ثبات العقيدة، ومن عبادة الهوى إلى السجود لله، ومن الخوف على النفس إلى حمل أمانة الحق والدفاع عنه.

إنها سورة تتحرك بين مشاهد تبدو متباعدة في ظاهرها: زلزلة الساعة، وأطوار الجنين، وجدال الكافرين، ومناسك الحج، وتعظيم الشعائر، والإذن بالقتال، وسجود الكائنات، ومصارع الأمم، وضعف الآلهة المصطنعة، ثم تنتهي بنداء المؤمنين إلى الركوع والسجود وفعل الخير والجهاد في الله. ولكن هذا التعدد ليس تفرقاً في البناء، بل هو وحدة عميقة لا تتكشف إلا لمن أصغى إلى النبض الذي يسري تحت الآيات: إخراج الإنسان من سلطان الأشياء إلى سلطان الله.

فكل مشهد في السورة يهدم رباً زائفاً من أرباب النفس. زلزلة الساعة تهدم وهم الاستقرار. وأطوار الخلق تهدم وهم الاستقلال. والحج يهدم وهم التملك. والهدي يذبح شح النفس قبل أن تُذبح الأنعام. والطواف يعيد ترتيب مركز الإنسان، فلا يعود يدور حول ذاته، بل حول أمر ربه. والجهاد يهدم الخوف الذي يجعل الباطل متألهاً في الأرض. والسجود يضع الجبهة، وهي موضع اعتداد الإنسان ورفعته، على التراب إعلاناً بأن العزة كلها لله.

سُورَةُ الْحَجِّ

ومن هنا كان اسم السورة أوسع من أن يدل على المناسك وحدها؛ فالحج فيها صورة جامعة للدين كله. خروجٌ من المألوف، وتجرّدٌ من الزينة، ونداءٌ بالتلبية، ووقوفٌ بين يدي الله، واستعادةٌ لذاكرة إبراهيم، وتعظيمٌ لما عظم الله، وتدريبٌ على الاجتماع حول قبلة واحدة، ثم عودةٌ إلى الحياة بقلب عرف مركزه الحقيقي.

وستتناول السورة من خلال بنائها الموضوعي المتصل، لا بتفكيك آياتها إلى معاني معزولة. وسنقف عند نظمها، وانتقالاتها، وصورها، وإيقاع ألفاظها، وما تفتح من لطائف إيمانية ونفسية؛ مع المحافظة على المعنى الذي يدل عليه السياق، فلا يتحول التدبر إلى خيال منفصل عن هداية النص، ولا تتحول البلاغة إلى زينة لفظية تحجب المقصد بدل أن تكشفه.

فبلاغة القرآن ليست طلاءً يوضع على المعنى بعد اكتماله؛ بل هي الطريقة التي وُلد بها المعنى في القلب. حين يقول سبحانه: (كَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)، فهو لا يخبرنا عن ضياع المشرك فحسب، بل يجعلنا نراه وهو يسقط، ونشعر بمباغطة الاختطاف، ونسمع في توالي الأفعال سرعة الانهيار، وندرك أن من فقد توحيد الله لم يفقد فكرة ذهنية، بل فقد السماء التي كانت تمسك وجوده.

وهكذا سنقرأ السورة: تفسيرًا يهدي إلى المعنى، وبلاغة تكشف جمال أدائه، وتدبرًا ينقل الآية من صفحات المصحف إلى أعماق النفس.

سُورَةُ الْحَجِّ الفصل الأول

حين ترتجف الأرض ليستيقظ القلب

تبدأ سورة الحج قبل أن تبدأ مناسك الحج. تبدأ بالقيامة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ).

وكان الطريق إلى البيت العتيق لا يبدأ من الأرض، بل من الآخرة. لا يبدأ من الإحرام، بل من التقوى. ولا يبدأ بسؤال الإنسان: كيف أحج؟ بل بسؤاله الأعظم: إلى أين أمضي؟

إن أول نداء في السورة ليس خاصًا بالمؤمنين، بل هو نداء الإنسانية كلها: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ). فالساعة لا تخص أمة دون أمة، والمصير لا يستثنى جنسًا ولا قومًا، والعبودية حقيقة الخلق جميعًا وإن اختلفت استجاباتهم لها. وحين يناديهم القرآن باسم إنسانيتهم، فإنه يوقظ فيهم الحقيقة التي سبقت ألوانهم وألسنتهم وانتماءاتهم: أنكم ناسٌ خلقكم رب واحد، وستقفون جميعًا بين يديه.

ولم يقل: اتقوا الساعة، بل قال: (اتَّقُوا رَبَّكُمُ). فالغاية ليست أن يمتلئ القلب رعبًا من الحدث منفصلًا عن الله، وإنما أن يحمله هول الحدث على الرجوع إلى ربه. ليست القيامة في القرآن فوضى كونية عمياء؛ إنها موعد العدل الإلهي. وكل خوف لا يقود إلى الله قد يتحول إلى ذعر، أما الخوف الذي يعرف ربه فإنه يصير تقوى واستعدادًا وإصلاحًا.

وفي قوله: (رَبَّكُمُ) لمسة رحمة داخل مشهد الإنذار. فالذي يحذركم من الزلزلة هو ربكم؛ خالقكم، ومربيكم، والقائم عليكم. إن الإنذار نفسه لون من

سُورَةُ الْحَجِّ

ألوان العناية؛ لأن من أراد أن يأخذك على غرة لم يرسل إليك كتابًا، ولم يبعث إليك رسولًا، ولم يصف لك الطريق ولا العاقبة.

ثم يأتي التعبير الذي يطرق القلب بوقعه:

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ).

إن كلمة (شَيْءٌ) هنا، مع ما يبدو فيها من الإبهام، تفتح للخيال فضاء لا يستطيع أن يحيط به. كأن الحدث أعظم من أن يُحدَّ بوصف واحد، أو يُستوعب في صورة واحدة. إنه شيء، ولكنه ليس كسائر الأشياء؛ ولهذا جاء وصفه نكرةً كذلك: (عَظِيمٌ)، ليذهب الذهن في تقدير عظمته كل مذهب، ثم يعود عاجزًا عن بلوغ منتهاه.

والزلزلة في أصل صورتها اضطراب لما كان يُظن أنه ثابت. فالإنسان يمشي على الأرض مطمئنًا لأنها تحمله، ويبني عليها بيته لأنه يثق بسكونها، ويقيم مشاريعه كأنها عقد أبدي بينه وبين المكان. فإذا زُلزلت الأرض، لم تسقط الأبنية وحدها، بل يسقط قبلها وهم الاستقرار الذي كان يسكن النفس.

وهذه هي الضربة الأولى في السورة: لا شيء من عالمك يملك أن يمنحك الثبات المطلق. الأرض التي احتميت بها ستضطرب، والجبال التي رأيتها رموزًا للرسوخ ستسير، والنظام الذي حسبته دائمًا سينحل بأمر الله. فلا تبحث عن الأمان النهائي في شيء محكوم عليه بالزوال.

ثم لا يكتفي القرآن بأن يخبرنا عن الزلزلة؛ بل ينقلنا فجأة إلى داخل المشهد:

(يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ).

قال: (يَوْمَ تَرَوْنها)، فجاء بالفعل المضارع ليقرب المشهد حتى يكاد القارئ يراه الآن. لم تعد القيامة خبرًا مؤجلًا في آخر الزمن، بل صارت صورة حاضرة أمام العين. وهذه إحدى طرائق القرآن في بعث المعنى من غيب الزمن إلى حضور الشعور: إنه لا يسمح للأخرة أن تظل معلومة باردة؛ بل يجعلها مشهدًا يقتحم الوجدان.

واختار صورة المرضعة؛ لأن الرضاعة من أشد لحظات الصلة الحية بين الأم وطفلها. ولم يقل: تذهل كل أم عن ولدها، بل قال: (كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ). فاللفظ يرسم المرأة في حال مباشرة الإرضاع، حين يكون الطفل أقرب ما يكون إليها، متعلقًا بها، مستمدًا حياته منها؛ ومع ذلك تذهل عنه.

إن الهول لم يقطع علاقة بعيدة، بل اخترق أشد العلاقات التصاقًا بالفطرة.

وفي التعبير: (عَمَّا أَرْضَعَتْ) إحياء بأن الذهول ليس عن شخص فحسب، بل عمن بذلت له من جسدها وغذائها وحنانها. إنها تنسى في تلك اللحظة ثمرة العناية التي كانت تستغرق وجودها كله. فإذا كان هذا الرباط الفطري العظيم ينحل من شدة الهول، فأى رباط دنيوي يستطيع أن يضمن للإنسان نجاهًا هناك؟

ثم ترتفع الصورة درجة أخرى:

(وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلٍ حَمْلَهَا).

في الصورة الأولى ذهول عاطفي، وفي الثانية اضطراب جسدي. كأن الهول أحاط بالإنسان من باطن شعوره وظاهر تكوينه؛ فالأم تذهل بقلبها، والحامل تلقي حملها بجسدها. وهكذا لا يبقى جزء من الكيان بمنأى عن وقع ذلك اليوم.

ثم يتسع المشهد من الأفراد إلى الناس جميعًا:

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ).

إنها صورة حركية مدهشة. الناس يمشون كما يمشي السكران: اختل توازنهم، واضطرب إدراكهم، وتاهت وجوههم، فلا تكاد الخطوات تعرف وجهتها. لكن القرآن يبادر إلى نفي السبب المألوف: (وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ). لم تغب عقولهم بالخمير، بل غلبها هول الحقيقة حين انكشفت بلا حجاب.

والنفي بعد الإثبات يوقظ الذهن. فقد أثبت لهم هيئة السكر ثم نفى عنهم حقيقته، ليجعل القارئ يبحث عن العلة، فتأتي الإجابة فاصلة:

(وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ).

إنه ليس سُكر اللذة، بل ذهول الرهبة. وليس غيابًا يحررهم من الإحساس، بل حضورًا للحقيقة يفوق قدرة الإحساس على الاحتمال.

وهنا نرى كيف تعمل البلاغة القرآنية في خدمة العقيدة: فالآية لا تقول إن القيامة شديدة في عبارة تقريرية فحسب، بل تبني أماننا عالمًا مضطربًا، وتختار من العلاقات الإنسانية أحثها، ومن الحالات الجسدية أضعفها، ومن الحركات أكثرها اختلالًا؛ حتى يتحول الإيمان بالساعة من فكرة إلى رجة في الضمير.

من زلزلة الأرض إلى زلزلة الغفلة

ليست غاية هذه الآيات أن يعيش المؤمن فرعًا يشل إرادته، بل أن يتخلص من الغفلة التي تشل بصيرته. إن من أيقن أن الأرض ستزلزل لم يجعلها إلهًا، ومن علم أن الخلق سيذهلون لم يعلق نجاته بهم، ومن أبصر شدة الموقف لم يؤجل توبته كأن الزمن ملك يديه.

للإنسان زلزلتان: زلزلة تقع في آخر العالم، وزلزلة ينبغي أن تقع الآن في داخله. فإذا زلزل الوحي أوهامه اليوم، تثبت الإيمان يوم تزلزل الأرض. وإذا بقيت أوهامه راسخة حتى الموت، جاءت الحقيقة دفعة واحدة فلم يجد قلبًا مهيبًا لاستقبالها.

وما أعجب أن تفتتح سورة الحج بهذا المشهد! فالحج في ظاهره حركة أجساد، لكنه في حقيقته زلزلة للمألوف. يخرج الإنسان من بيته، ويخلع ثيابه المعتادة، ويفارق نظام أيامه، ويلبي مع الجموع، ويقف حيث وقف الأنبياء؛ فيتعلم عمليًا أن حياته المستقرة ليست إلا إقامة مؤقتة، وأن وراء كل وطن رحلة، ووراء كل لباس كفنًا، ووراء كل اجتماع حشرًا.

سُورَةُ الْحَجِّ

إن الإحرام يجرّد الإنسان قبل أن يجرّده الموت، وعرفات تجمعه قبل أن يجمعه الحشر، والتلبية تدرب لسانه على إجابة النداء قبل أن يسمع نداء المصير.

لهذا بدأت سورة الحج بالساعة؛ لأن من لم يعرف إلى أين ينتهي سفره، لن يفهم لماذا يحج. ومن لم يستيقظ على صوت المعاد، قد يطوف بجسده ويبقى قلبه يدور حول الدنيا.

إن أول مناسك الحج في هذه السورة هو التقوى، وأول مواقيته اليقظة، وأول منازلها أن يوقن الإنسان أنه راجع إلى الله.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثاني

حين يجادل التراب في خالفه

بعد أن عرضت السورة مشهد القيامة في رجفته الكونية والنفسية، انتقلت من هول الساعة إلى موقف الإنسان منها:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ).

إنه انتقال مدهش من الحقيقة وهي تملأ الكون إلى الإنسان وهو يجادل فيها؛ من زلزلة تكاد تخلع الأرض من قرارها إلى مخلوق ضعيف يرفع صوته معترضاً على ربه. والمفارقة وحدها تكشف مقدار الغرور: هذا الذي لا يستطيع أن يحفظ قلبه من التوقف، ولا جسده من المرض، ولا عمره من الفناء، يخوض في شأن الله كأنه يقف على أرض مساوية!

ولم تقل الآية: يجادل في الساعة فحسب، بل قالت: (يُجَادِلُ فِي اللَّهِ). لأن إنكار البعث ليس خللاً في تصور حدث مستقبل فحسب، بل هو خلل في معرفة الله؛ فمن عرف قدرة الخالق لم يستبعد الإعادة، ومن عرف حكمته لم يظن أن الوجود ينتهي بلا حساب، ومن عرف عدله لم يتصور أن يتساوى الظالم والمظلوم حين يُغلق عليهما التراب.

إن كل تصور للأخرة مبني في أعماقه على تصور عن الله. والذي يستبعد البعث لا يكون قد أخطأ في تقدير الإنسان وحده، بل أخطأ قبل ذلك في تقدير ربه.

الجدل الذي لا يبحث عن الحقيقة

قيدت الآية هذا الجدل بقولها: **(بَغَيْرِ عِلْمٍ)**. وليس كل سؤال مذمومًا، ولا كل مراجعة للفكرة خروجًا على الإيمان؛ فالقرآن نفسه يدعو إلى النظر والتفكير والتدبر، وقيم البراهين، ويحاور المعاندين، ويوقظ العقول من التقليد. وإنما المذموم ذلك الجدل الذي يبدأ قبل المعرفة، ويصدر حكمه قبل النظر، ويطلب الغلبة لا الهداية.

وهذا مرض قديم يتجدد في كل عصر: أن يعرف الإنسان قليلًا، ثم يتكلم في القضايا الكبرى بطمأنينة من يعرف كل شيء. يجهل حقيقة نفسه، ثم يفصل في حقيقة الوجود. لا يدري كيف بدأت أول خلية في جسده، ثم يسخر من إمكان إعادته. يعيش محاطًا بالأسرار، لكنه يتحدث عن الغيب بلغة من أحاط به خبرًا.

إن الجهل إذا عرف صاحبه أنه جهل، كان قابلاً للتعليم؛ أما إذا تنكر في هيئة اليقين، صار جدلاً يحجب القلب عن النور.

ولم يقل: ويتبع شيطانًا، بل قال:

(وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ).

وفي لفظ **(كُلِّ)** تصوير لنفس فقدت ميزانها؛ فما من صوت متمرّد يبعدها عن الله إلا استجابت له. تتبدل الشبهات، وتتغير الشعارات، وتتعدد الطرق، ولكن الاتجاه واحد: الفرار من العبودية.

سُورَةُ الْحَجِّ

أما وصف الشيطان بأنه (مَرِيدٌ)، ففيه معنى التجرد للتمرد والعتو، كأن الشر قد خلص فيه من كل رادع. ومن مادة اللفظ معنى الملاسة والتجرد؛ فكأن هذا الشيطان قد تجرد من الخير، وَمَرَنَ على العصيان، ولم يبق فيه موضع تتعلق به موعظة.

والإنسان الذي يرفض أن يتبع هدى الله لا يبقى بلا اتباع. هذه من حقائق النفس التي تكشفها الآية: من لم يخضع للحق خضع للهوى، ومن لم يهتد بالوحي ساقته الشياطين، ومن توهم أنه يتحرر من عبادة الله قد ينتقل من عبودية واحدة كريمة إلى عبوديات لا تنتهي.

العبودية لله تجمع الإنسان في مركز واحد، أما العبودية لغيره فتبده بين شهوات ومخاوف وأهواء وسادة متفرقين.

ثم تكشف السورة مآل هذه الصحبة:

(كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ).

يا للمفارقة البيانية في قوله: (وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)! فالهداية في أصل استعمالها حركة إلى غاية، لكنها هنا حركة إلى الهلاك. إنه طريق له قائد، وله خطوات، وله نهاية؛ غير أن قائده شيطان، وخطواته ضلال، ونهايته سعير.

وقد يُحسن الباطل ترتيب الطريق، لكنه لا يستطيع أن يغير المصير.

سُورَةُ الْحَجِّ

إن الشيطان لا يبدأ غالبًا بأن يقول للإنسان: اتبعني إلى النار. إنما يسمي له الانحراف حرية، والكبر كرامة، والشهوة حقًا طبيعيًا، والفرار من التكليف تحررًا، ثم يسير به مرحلة بعد مرحلة حتى يبلغه حيث كُتب لمن تولاه أن يبلغ.

وفي قوله: (مَنْ تَوَلَّاهُ) إشعار بأن الضلال لم يقع على إنسان بريء من كل اختيار؛ لقد اتخذه وليًا، وفتح له منافذ القلب، وأثر وسوسته على هداية ربه. فالشيطان يدعو ويزين، لكن الإنسان هو الذي يمنحه الولاية. وما أخطر أن تتحول الخاطرة العابرة إلى طاعة، والطاعة إلى عادة، والعادة إلى ولاء، حتى يصبح الباطل مرجعًا للنفس ترى به الأشياء.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثالث

برهان البعث المكتوب في الجسد

بعد أن ذكرت السورة المجادلين في الله بغير علم، لم تجبهم بتجريد فلسفي بعيد، بل ردتهم إلى أنفسهم:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ).

كأن القرآن يقول: قبل أن تذهبوا بعيداً في الجدل، اقتربوا من ذواتكم. إن البرهان الذي تطلبونه ليس غريباً عنكم؛ إنه يجري في دمائكم، ويتجدد في الأرحام، وتحمله وجوهكم وأجسادكم.

فالإنسان نفسه وثيقة خلق، لكنه لطول الألفة نسي أن يقرأها.

نداء يعيد الإنسان إلى أصله

عاد النداء مرة أخرى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ).

فالبرهان هنا عام، تدرك مقدماته الفطرة والعقل والمشاهدة. وكل إنسان، مؤمناً كان أو منكراً، يحمل في تكوينه أثر البداية الأولى. وليس للمتكبر نسب جسدي أرفع من غيره؛ فالناس جميعاً يلتقون عند التراب، ثم عند قطرة الماء.

وفي قوله: **(إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ)** إنصاف في الحجاج؛ إذ يواجه موضع الإشكال نفسه، ولا يتهرب منه. والريب ليس جهلاً ساكناً فحسب، بل شكٌ يصحبه اضطراب. ومن دقة المناسبة أن السورة بدأت بزلزلة الأرض، ثم عرضت هنا زلزلة اليقين داخل النفوس: الأرض ستضطرب يوماً، لكن قلوب المنكرين مضطربة قبل ذلك لأنها لم تستقر على معرفة الله.

ثم جاءت الإجابة لا في صورة دعوى، بل في صورة رحلة:

(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ).

إن تتابع **(ثُمَّ)** يجعل العين تمر على مدارج الخلق مرحلةً مرحلة. وهي لا تدل على الترتيب وحده، بل تمنح كل طور مساحة للتأمل؛ فكأن بين كل **(ثُمَّ)** وأخرى باباً من أبواب القدرة ينبغي للعقل أن يقف عنده.

من تراب لا حياة فيه في الحس الظاهر، إلى نطفة دقيقة، إلى علقة، إلى مضغة، ثم إلى بناء إنساني بالغ التعقيد، يسمع ويبصر ويفكر ويحب ويخاصم في خالقه!

أي مسافة قطعها القدرة بهذه القطرة حتى صارت عقلاً يجادل ولساناً ينكر؟!

إن الذي يستبعد البعث بسبب تفرق الجسد يغفل عن أن بدايته كانت أشد تفرقاً. لقد كانت عناصره مبعثرة في تراب الأرض، ثم صارت غذاء، ثم نطفة، ثم إنساناً سوياً. فإذا كانت القدرة قد جمعته أول مرة من غير مثال سابق، فكيف يعجزها أن تعيده بعد أن صار معلوم الخلقة والهوية؟

من التراب إلى الغرور

اختيار التراب أصلاً مذكوراً للإنسان ليس مجرد بيان لمادة الخلق؛ إنه تربية دائمة على التواضع. فالإنسان حين ينسى أصله يطغى، وحين يتذكره يعرف قدره.

التراب الذي يدوسه بقدمه هو مادته الأولى، والتراب الذي ينفضه عن ثوبه هو فراشه الأخير. وبين تراب البداية وتراب النهاية يُمنح فرصة قصيرة ليعرف ربه.

ولكن القرآن لا يريد من تذكير الإنسان بأصله أن يهينه، بل أن ينقذه من إهانة الكبر. فالكرامة ليست في المادة التي خُلق منها، وإنما في الروح التي نفخها الله فيه، والهدى الذي أنزله إليه، والعبودية التي شرفه بها. لقد جاء من تراب، لكنه يستطيع بالإيمان أن يرتفع؛ أما إذا تكبر على الله، فإنه يهبط بإرادته دون المادة التي خُلق منها.

مخلقة وغير مخلقة

ثم يقول سبحانه:

(مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ).

في هذا التعبير إحاطة بتفاوت ما يجري في عالم الأرحام وفق مشيئة الله: ما يتم خلقه وتسويته، وما لا يبلغ تمامه، وما تتبين معالمه وما يكون دون ذلك. إن الرحم ليس مصنوعاً يعمل مستقلاً عن الإرادة الإلهية، بل عالم تجري فيه المقادير تحت علم الله وقدرته.

سُورَةُ الْحَجِّ

ثم تأتي العبارة: **(لِنُبَيِّنَ لَكُمْ)**، ولا يُذكر مفعول التبیین صراحة، ليشمل وجوهاً متعددة من البيان: لنبين لكم قدرتنا، وحكمة خلقكم، وتصريفنا لأطواركم، وإمكان بعثكم، وعجزكم الكامل في بداية وجودكم.

كأن أطوار الجنين ليست خلقاً فحسب، بل خطاب. كل مرحلة منها كلمة من كلمات القدرة، غير أن الإنسان اعتاد رؤية المواليد فنسي المعجزة الكامنة في كل مولود.

القرار الذي لم نصنعه

يقول سبحانه:

(وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً).

لفظ **(وَنُقَرِّ)** يوحي بالإثبات والاستقرار بعد انتقالات الخلق الأولى. والذي أقر الجنين في ذلك المستودع الخفي هو الله. لم يختار الإنسان رحمه، ولم يحدد ملامحه، ولم يشرف على انقسام خلاياه، ولم يحم نفسه في ذلك الظلام. كان يتكون تحت رعاية لا يشعر بها، وتدبير لا يراه، ورحمة سبقت وعيه بنفسه.

وكم في قوله: **(مَا نَشَاءُ)** من رد للإنسان إلى حدود عبوديته! ففي أكثر المواطن التي تتعلق بها آمال البشر وحساباتهم، تبقى المشيئة العليا لله. قد يأخذ الإنسان بالأسباب، وهو مأمور بها، لكن السبب لا يتحول إلى إله، ولا يملك من وراء مشيئة الله خلقاً ولا بقاءً.

سُورَةُ الْحَجِّ

ثم قال: (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى). فحتى الإقامة في الرحم مؤقتة بموعد مقدر. ومنذ أول وجود الإنسان وهو ينتقل من أجل إلى أجل، ومن طور إلى طور، ومن دار إلى دار. وما الحياة الدنيا إلا رحم أوسع تنتهيأ فيه الروح لميلاد آخر؛ فمن الناس من يخرج منه إلى النور، ومنهم من يخرج وقد أفسد فطرته وأضاع غايته.

ثم قال: (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً). جاء لفظ (طِفْلاً) مفردًا مع أن الخطاب للجماعة، وفي ذلك رد لكل واحد إلى صورته الإنسانية الأولى؛ فمهما تعددت الأسماء والمراتب، فإن الجميع خرجوا أطفالًا. لا ملك خرج بتاجه، ولا غني خرج بخزانته، ولا عالم خرج بعلمه. خرجوا ضعافًا، لا يملكون لأنفسهم طعامًا ولا دفعًا ولا بيانًا.

إن الطفولة حجة على غرور الإنسان؛ فقد كان يومًا عاجزًا حتى عن أن يقلب جسده، ثم لما اشتد عوده ظن أن القوة ملكه.

بلوغ الأشد: الأمانة بعد الضعف

ثم يقول تعالى:

(ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ).

إن بلوغ الأشد ليس مجرد انتصار بيولوجي للجسد، بل بلوغ لموضع التكليف. فالقوة ليست مكافأة خالصة، وإنما أمانة. والإنسان لا يُسأل فقط: كيف ضعفت؟ فالضعف الأول لم يكن باختياره؛ ولكنه يُسأل: ماذا فعلت حين قويت؟ أين أنفق عقله؟ وفيما استعمل بدنه؟ ولمن أعطى إرادته؟

لقد أخرج الله طفلاً لا يعلم شيئاً، ثم منحه القدرة تدريجياً. فكل قوة لاحقة دين في عنقه، وكل موهبة شهادة بأن الذي أعطى يستطيع أن يسلب، وأن المنعم أولى بالشكر من النعمة.

(وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا).

هنا ينقسم الطريق: فمن الناس من يموت قبل الشيخوخة، ومنهم من يمتد به العمر حتى تعود قوته ضعفاً، وعلمه نسياناً، واستقلاله حاجة.

وفي التعبير: (يُرَدُّ) إحياء بأن الإنسان يعود إلى هيئة من الضعف تشبه بدايته. كأن العمر قوس: يبدأ بعجز، يرتفع إلى قوة، ثم ينحني عند نهايته إلى العجز مرة أخرى. وبين الطرفين لحظة قصيرة تسمى الشباب أو الأشد، يغتر بها الإنسان كأنها حالته الأصلية الدائمة.

وقوله: (لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) يهدم تأله العقل البشري. فهذا العقل الذي جمع العلوم، وحفظ الأسماء، وأدار المصالح، يمكن أن تنسحب منه معارفه شيئاً فشيئاً حتى يقف أمام أقرب الأشياء حائراً.

فالعلم وديعة، والذاكرة وديعة، والوعي وديعة. وليس للإنسان من ذاته شيء يضمن بقاءه.

لكن الآية لا تبيح احتقار الشيخ الكبير، بل تدعو إلى رحمته وتوقيره؛ فإن ما نراه فيه من ضعف هو مستقبل القوة البشرية إذا امتد بها الزمن. وهو شاهد حي يعلم الأصحاء التواضع، ويذكر الأبناء بديون الرحمة: كما حملكم

سُورَةُ الْحَجِّ

آبَاؤُكُمْ حِينَ لَمْ تَعْرِفُوا، فَاحْمِلُوا ضَعْفَهُمْ حِينَ يَعُودُونَ إِلَى حَالٍ لَا يَعْرِفُونَ فِيهَا.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الرابع

الأرض الميتة تشهد للبعث

بعد أن أقامت السورة برهان البعث في الجسد، نقلت النظر إلى الأرض:
(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ
زَوْجٍ بَهِيجٍ).

هنا تتحول الأرض من مكان يمشي عليه الإنسان إلى آية يقرأها. والمشهد
مألوف، لكن القرآن ينفذ عنه غبار الاعتیاد. فالإنسان يرى المطر والنبات
مرات كثيرة، حتى يظن أن التكرار يسلب الحدث إعجازه؛ غير أن تكرار
القدرة لا يجعلها عادة مستقلة عن الله، بل يجعل الرحمة متصلة لا تنقطع.

قال: (هَامِدَةً)، والهمود سكون بعد خفوت؛ كأن الأرض جسد انطفات
حركته. لا خضرة، ولا نمو، ولا علامة في ظاهرها تقول إن تحت ترابها
جيوشاً من الحياة تنتظر الإذن.

ثم قال: (فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ). وجاءت (إِذَا) الفجائية لتطوي الزمن بين
الموت والحياة؛ فما إن ينزل الماء حتى تتغير هيئة المشهد. إن القدرة لا
تحتاج إلى معاناة لترد الحياة، ولا إلى زمن يرهقها؛ إنما يأذن الله فتتحرك
أسباب الخلق.

(اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ).

ثلاث حركات متتابعة بعد لفظ واحد ساكن: (هَامِدَةً).

سُورَةُ الْحَجِّ

في الهمود صمت، ثم تنفجر الأفعال: اهتزت، وربت، وأنبئت. وكأن إيقاع الألفاظ نفسه يحاكي دبيب الحياة في التراب. تبدأ الحركة خفية بالاهتزاز، ثم يظهر أثرها في الارتفاع والانتفاخ، ثم تخرج الثمرة إلى عالم الرؤية.

إن القرآن لا يكتفي بالقول: أحيا الله الأرض؛ بل جعلنا نشهد درجات الإحياء.

ثم يختم الصورة بقوله:

(مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ).

البهجة ليست ضرورة للنبات من جهة إثبات الحياة وحدها؛ كان يمكن أن ينبت النبات بلا هذا التنوع الأسر من الألوان والروائح والهيئات. ولكن الذي خلق الحياة أودع فيها الجمال أيضاً. فالكون لا يشهد بأن الله قادر فحسب، بل يشهد بأنه كريم، لطيف، جميل الآثار.

والزهرة ليست مجرد جهاز للتكاثر كما يصفها النظر المادي المحدود؛ إنها كذلك رسالة بهجة إلى الروح، وإشارة إلى أن خالق العالم لم يبنه على المنفعة الجافة وحدها، بل نشر فيه من الحسن ما يوقظ المحبة والتسبيح.

جسدك والأرض كتاب واحد

وضع القرآن خلق الإنسان وإحياء الأرض في سياق واحد؛ لأن المشهدين يفسر أحدهما الآخر. النطفة تشبه البذرة في خفائها، والرحم يشبه الأرض في احتضانه، والماء أصل ظاهر في بعث الحياة، والخروج من الرحم يذكر بالخروج من القبور.

سُورَةُ الْحَجِّ

فالذي أخرج الإنسان أول مرة طفلاً، والذي أخرج النبات من التراب غصناً، هو الذي يخرج الموتى من الأجداث.

ولهذا تأتي النتيجة محكمة متتابعة:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ).

تكررت (أَنَّ) كأن كل حقيقة وتُدَّ يثبت اليقين في القلب. ليست النتيجة واحدة بسيطة، بل سلسلة مترابطة:

الله هو الحق؛ ومن كان هو الحق ففعله حق ووعدته حق ولقاؤه حق.

وهو يحيي الموتى؛ فالإحياء ليس احتمالاً بعيداً، بل فعل ثابت من أفعاله.

وهو على كل شيء قدير؛ فلا يحد قدرته ما يحد قدرة المخلوق.

والساعة آتية؛ فهي تتقدم نحو الإنسان وإن ظن أنه لا يتحرك إليها.

والله يبعث من في القبور؛ فلا يضيع جسد، ولا تُنسى نفس، ولا يغيب فرد داخل كثرة الموتى.

ولم يقل: يبعث الموتى فقط، بل قال: (يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ). فجاء التعبير بصورة المكان المغلق الذي يتوهم الإنسان أن من دخله انقطع خبره. القبور في أعيننا نهاية المسار، لكنها في قدرة الله مواضع انتظار. وما نسميه مثوى أخيراً ليس في ميزان الوحي إلا مرحلة قبل القيام.

من عرف الحق لم يستوحش من البعث

بدأت النتائج بقوله:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ).

وهذه هي القاعدة التي يحمل عليها المؤمن يقينه كله. فالوجود ليس قائماً على العبث، والموت ليس ثقباً أسود تبتلع فيه المعاني، والظلم ليس الكلمة الأخيرة في التاريخ؛ لأن الله هو الحق.

ولو لم يكن بعث، لبقيت دماء كثيرة بلا إنصاف، وحقوق بلا استرداد، ودموع مظلومين بلا جواب ظاهر، وطغاة رحلوا وقد أفلتوا من محاكم الأرض. لكن الساعة آتية لأن الله هو الحق؛ والبعث ضرورة يقتضيها كمال عدله وحكمته، لا مجرد حادثة خارقة للعادة.

إن المؤمن لا يؤمن بالآخرة لكي يهرب من الدنيا، بل لكي يضع الدنيا في موضعها الصحيح. يعرف أن العمل لا يضيع، وأن الصبر ليس فراغاً، وأن الأمانة ليست خسارة، وأن الذين ماتوا دفاعاً عن الحق لم تنطفئ حكايتهم تحت التراب.

كل شيء قد ينكره أهل الأرض، لكنه محفوظ عند الله. وكل حق قد تسقطه موازين القوة، سيرفعه ميزان القيامة. وكل جسد أكلته الأرض بقي معلوماً لمن أنشأه أول مرة.

سُورَةُ الْحَجِّ

وهكذا تنتقل السورة بالقلب من الزلزلة إلى اليقين، ومن صورة الناس
سكارى إلى الأرض وهي تزهر بالنبات، لتقول له: إن اليد التي تحيي
الأرض بعد موتها هي التي تمسك مصيرك؛ فلا تجعل القبر نهاية رؤيتك،
ولا تجعل الدنيا نهاية سعيك.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الخامس

حين يعمى القلب وفي يده المصباح

بعد أن أقامت السورة برهان البعث في خلق الإنسان وإحياء الأرض، عادت إلى صورة المجادل، ولكنها هذه المرة كشفت شيئاً من بنيته النفسية:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيْقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ).

سبق أن قالت السورة:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ).

وهنا تعيد الصورة مع زيادة تكشف طبقة أخرى من الضلال. في الموضع الأول بدا المجادل تابعاً للشيطان، وفي هذا الموضع يبدو متكبراً يصد الناس عن سبيل الله. فهو تابع من جهة، متبوع من جهة أخرى؛ تلقى الضلال من شيطانه، ثم صار يورثه لمن وراءه. وهذه طبيعة الباطل: يبدأ وسوسة في نفس، ثم يتحول على لسانها إلى دعوة، ويبدأ انحرافاً فردياً، ثم يطلب لنفسه أتباعاً ونظاماً وسلطاناً.

مصادر المعرفة الغائبة

تتدرج الآية في نفي كل مستند صحيح عن هذا الجدل:

(بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ).

إنها ثلاثة أنوار كان يمكن أن تمنعه من السقوط: علم يدرك به الحقيقة، وهدى يسلك به طريقها، وكتاب منير يكشف له ما تعجز عنه مداركه المحدودة.

فالعلم يبطل الجهل، والهدى يبطل الضلال، والكتاب المنير يبطل التخبط في الغيب. أما هذا المجادل فقد خلت يداه من الثلاثة جميعاً؛ لا حجة عقلية صحيحة، ولا بصيرة تهديه، ولا وحي يستند إليه. ومع ذلك يتكلم بجرأة الواثق، ويعرض عن الحق عرض المستغني.

وقد يملك الإنسان معلومات كثيرة، لكنه لا يملك علمًا بالمعنى القرآني؛ لأن العلم الذي لا يقوده إلى معرفة قدره، ولا يكشف له شواهد ربه، قد يصير مادة جديدة للغرور. ليست العبرة بما تراكم في الذاكرة، بل بالنور الذي أحدثته المعرفة في الرؤية.

وفي وصف الكتاب بأنه (مُنِير) دلالة على وظيفة الوحي: إنه لا يقدم للإنسان أفاظاً يحفظها فحسب، بل يضيء له الطريق. فالوجود بغير الوحي قد يبدو كغرفة ممتلئة بالأشياء في ظلام كثيف؛ كل شيء موجود، لكن مواضعه وغاياته وصلاته خفية. فإذا جاء نور الكتاب، لم يخلق الأشياء من جديد، بل كشف حقيقتها ومكانها من نظام العبودية.

يُريك جسدك نعمةً وأمانة، والدنيا ممراً وابتلاء، والموت انتقالاً، والقوة مسؤولية، والضعف باب افتقار، والتاريخ ساحةً للسنن، والكون محراباً للتنسيب.

الكتاب منير لأنه يرد كل شيء إلى معناه.

الكبر الذي يظهر في هيئة الجسد

لم تكتف الآية بوصف خطابه، بل رسمت هيئة جسده:

(ثَانِي عِطْفِهِ).

العِطْف جانب العنق أو الجسد، وثنيه هنا هيئة إعراض وتكبر. كأن المعنى الباطن خرج إلى الجارحة؛ فالتوى الجسد لأن القلب قد التوى قبل ذلك، وانصرف الوجه لأن البصيرة أعرضت عن النور.

إن للنفوس حركات تظهر على الأجساد. فالتواضع له هيئة، والكبر له هيئة، والإصغاء له هيئة، والإعراض له هيئة. وقد يظن الإنسان أنه يخفي استعلاءه خلف كلماته، لكن نبرة صوته، والتفات وجهه، وطريقة إنصاته تكشف ما استقر في داخله.

وما أشد المناسبة بين قوله: (ثَانِي عِطْفِهِ) وبين الحج الذي ستعرضه السورة! فالحاج يأتي خاضع الهيئة، مكشوف الرأس، منزوع الزينة، يطوف مع الناس دون امتياز؛ أما هذا فيتثنى عطفه كأن في عنقه رتبة تمنعه من الانقياد.

الحج يقيم الجسد في هيئة العبودية، والكبر يقيمه في هيئة الاعتراض.

وقد يكون المرء بعيداً عن الكعبة، لكن قلبه محرم لله؛ وقد يطوف بالبيت، وفي عنقه عِطْفٌ مثنيٌّ على الخلق، يستعلي بنسبه أو علمه أو ماله. ولهذا ليست حركات الحج غاية مستقلة، بل تربية للجسد حتى يوافق باطن العبودية.

من الجدل إلى الإضلال

قال سبحانه:

(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

فلم يعد الضلال موقفًا يخص صاحبه؛ لقد صار مشروعًا لإبعاد الآخرين. وبعض الناس لا يكتفي بأن يرفض النور، بل يزعمه أن يراه في يد غيره. لأن وجود المهتدي يفضح ضلاله، وثبات المؤمن يوقظ في داخله ما حاول إسكاته.

لذلك يسخر من المستقيم، ويهون شأن الإيمان، ويزين الشبهات، ويجعل الخضوع لله تخلفًا، والعبث تقدمًا، والتحلل شجاعة، والثبات جمودًا. إنه يعيد تسمية الأشياء كي يضل الناس عن حقائقها.

لكن الآية قالت: (عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)، والسبيل مضاف إلى الله. وهذا وحده يمنح المؤمن طمأنينة: فالطريق ليس ملك الدعاة حتى يخافوا عليه من الانقطاع، ولا ملك الطغاة حتى يغلقوه إلى الأبد؛ إنه سبيل الله. قد يقف عليه المضلون، ويرفعون حوله الغبار، ويؤذون سالكيه، لكنهم لا يستطيعون إطفاء نهايته ولا تحويل وجهته.

الخزي قبل الحريق

قال تعالى:

(لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ).

الخزي انكشاف المهانة بعد طلب العزة بالباطل. والمتكبر يظن أنه بثني عطفه يحفظ مكانته، لكنه يصنع بذات الكبر أسباب سقوطه. قد يعلو زمناً، ويتبعه الناس، ويستطيل بصوته، غير أن الباطل يحمل في داخله بذرة افتضاحه؛ لأنه منفصل عن الحق الذي يحفظ الأشياء من التهاوي.

ثم انتقل التعبير من الخزي في الدنيا إلى الإذاقة في الآخرة:

(وَنُذِيقُهُ).

والذوق أخص الحواس اتصالاً بما تدرك؛ فلا يبقى العذاب خبراً يسمعه من بعيد، بل يصبح حقيقة يباشرها. لقد كان يجادل في الوعيد كأنه فكرة، ثم صار يذوق ما جادل فيه.

ويقال له:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

في قوله: (بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ) رد كامل على كل دعوى للظلم. فالعذاب لم ينشأ من فعل بلا سبب، بل من عمل أرسله صاحبه أمامه، ثم لحق به.

سُورَةُ الْحَجِّ

والإنسان في كل يوم يقدّم شيئاً إلى غده الأبدي. الكلمة لا تنتهي حين يبتلعها الهواء، والموقف لا يموت بانتهاء لحظته، والعمل لا يزول باختفاء أثره من أعين الناس؛ كل شيء يُقدّم، وكل امرئ مسافر إلى ما قدّم.

وخصت اليدان بالذكر لأن أكثر الأفعال تباشر بهما، وإن كان الجزاء يشمل كل ما كسب الإنسان. وكأن يديه اللتين كان يبطش بهما أو يكتب بهما الباطل أو يشير بهما إلى طريق الضلال قد أرسلتا مادة العذاب قبل وصوله.

ثم جاء أصل العدل كله:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ).

إن الله لا يعذب بريئاً، ولا ينقص محسناً، ولا يحمل نفساً ذنب غيرها، ولا تضع في ميزانه حسنة خفية، ولا تختلط عليه النيات، ولا يحتاج إلى شهادة زور أو جهاز ناقص يكشف له الوقائع. يعلم السر وأخفى، ويقيم الميزان بالقسط.

ومن عرف أن الله ليس بظلام للعبيد، اطمأن حين تضطرب محاكم الأرض. لا يعني ذلك أن يستسلم للظلم، بل أن يقاومه دون أن ينهار قلبه إن تأخر إنصافه؛ لأن فوق كل حكم بشري حكماً لا يخطئ، ووراء كل يوم دنيوي يوماً تظهر فيه الموازين كاملة.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل السادس

عبادة على حافة القلب

بعد صورة المجادل المتكبر، تنتقلنا السورة إلى نفس أخرى لا تجادل في الدين صراحة، لكنها لم تدخل فيه دخول المستسلم:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ).

ما أبلغ هذه الصورة، وما أشد كشفها للنفس!

إنه يعبد الله، ولكنه يعبد (عَلَى حَرْفٍ). والحرف هو الطرف والحافة؛ الموضع الذي لا ثبات فيه. لم يدخل إلى سعة الإيمان، ولم يستقر في مركز اليقين، بل وقف عند الحافة مترددًا: قدم تبدو في الطريق، وقلب يتلفت إلى الوراء.

إن المشكلة ليست في صورة العبادة الظاهرة، فقد سماها القرآن عبادة، وإنما في الموقع الذي تقف فيه النفس من العبادة. هناك من يعبد الله من قلب الحقيقة: عرف ربه فعبد، وأحبه فاستقام، وأيقن بحكمته فسلم. وهناك من يقف على الطرف، يجرب الدين كما تُجرب صفقة: إن جاءه الربح بقي، وإن تأخرت المنفعة انصرف.

الإيمان المشروط

قال تعالى:

(فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ).

لم يقل: اطمأن بالله، بل قال: (اطْمَأَنَّ بِهِ)، أي بالخير الذي أصابه. وهذه دقة تكشف موضع تعلق قلبه. ظن أنه مطمئن بالإيمان، لكنه في الحقيقة مطمئن إلى رخاء حياته. كانت عافيته هي التي تثبتته، وربحه هو الذي يسكن اضطرابه، وتحسن ظروفه هو البرهان الذي يطلبه على رضى الله عنه.

فإذا اتسع رزقه قال: هذا دين مبارك. وإذا شفي مريضه قال: إن الله قريب. وإذا نال ما دعا به ظن أن يقينه راسخ. لكنه لم يكن قد عرف الله في الحقيقة، بل عرف أثر النعمة في نفسه.

والنعمة قد تقود إلى الله إذا رآها القلب رسالة محبة وابتلاء شكر، وقد تحجب عن الله إذا توقف عند لذتها ونسي منعمها. وهذا الرجل لم يكن يطمئن إلى المعطي، بل إلى العطاء؛ ولذلك اهتزت عبادته حين تغير العطاء.

(وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبْ عَلَى وَجْهِهِ).

الفتنة هي ما يكشف حقيقة المعدن. فهي لا تخلق دائماً ضعف القلب، بل تظهر الضعف الذي كان مستوراً في أيام الرخاء. السفينة لا تعرف متانتها وهي راسية في الميناء، وإنما تعرف حين تضربها الأمواج. وكذلك الإيمان لا يكشف عمقه مجرد هدوء الحياة، بل حين تتأخر الإجابة، ويضيق الرزق، ويفقد الإنسان حبيباً، أو يطول به الألم، ثم يبقى مع الله.

واختيار قوله: (انْقَلَبْ عَلَى وَجْهِهِ) يرسم سقوطاً كاملاً. لم يرجع بخطوات هادئة فحسب، بل انقلب؛ لأن الذي يقف على الحرف يكفيه دفع خفيف ليسقط. وجاء الوجه في الصورة لأنه أشرف ظاهر الإنسان، فإذا انقلب عليه بلغ السقوط غايته في الإهانة والاضطراب.

وهذا يقابل هيئة المؤمن الساجد. فكلاهما يبلغ وجهه الأرض، لكن شتان بين وجه يضعه صاحبه اختياراً لله فيرفعه الله، ووجه ينقلب عليه صاحبه فراراً من الابتلاء فيهوي به. الساجد يخفض وجهه عبودية فيعلو، والمنقلب يرفض الخضوع فيسقط.

الابتلاء ليس نقيض العناية

هذه الآية تصحح أحد أخطر التصورات في علاقة الإنسان بربه: أن الخير الدنيوي وحده دليل الرضا، وأن الفتنة دليل الهجر.

لو كان الرخاء علامة المحبة المطلقة، لكان الطغاة أحب الناس إلى الله كلما اتسعت خزائنهم. ولو كان البلاء علامة السخط، لما كان الأنبياء أشد الناس بلاء. إن الدنيا ليست دار توزيع الجزاء النهائي، بل دار امتحان؛ قد يُعطى الإنسان لِيُختبر شكره، ويُمْنَع لِيُختبر صبره، ويُفْتَح له ليظهر تواضعه، ويُضَيَّق عليه ليظهر صدقه.

وليس معنى ذلك أن يتمنى المؤمن الألم، أو يهمل طلب العافية؛ فقد علّمنا الدين سؤال الله العفو والعافية. لكن الفرق عظيم بين من يكره البلاء بطبعه البشري ويثبت مع الله، وبين من يجعل عبوديته ثمناً معلّفاً على دوام الراحة.

سُورَةُ الْحَجِّ

المؤمن يتألم، وقد يبكي، ويشكو إلى الله، ويسأله الفرج؛ لكنه لا يحول ألمه إلى تهمة لربه. يعلم أن بصره يرى اللحظة، وأن حكمة الله تحيط بالرحلة كلها.

كم من منع كان حماية، وكم من تأخير كان تهيئة، وكم من كسر أنقذ القلب من تأله خفي، وكم من باب أغلق لأن وراءه ضياعاً لم نكن نراه.

وحين لا ينكشف وجه الحكمة، يبقى وجه الله معروفاً بأسمائه وصفاته: الحكيم لا يعبت، والرحيم لا ينسى، والعليم لا يخطئ، والعدل لا يظلم.

خسارة الدارين

قال سبحانه:

(خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ).

قد يُظن أن الذي ترك الثبات طلباً للدنيا سينالها، لكن القرآن يعلن خسارته لها أيضاً. وليس معنى خسارة الدنيا دائماً أن يفقد المال والجاه؛ فقد يملكهما، لكنه يفقد الطمأنينة والمعنى والبركة. وما قيمة دنيا يملك فيها الإنسان أشياء كثيرة ولا يملك نفسه؟ وما قيمة نجاح يخاف زواله كل ليلة؟ وما قيمة لذة لا يعرف صاحبها لماذا يعيش ولا إلى أين يمضي؟

لقد طلب الخير العاجل من الدين، فلما لم يأتِ على الصورة التي يريدّها ترك الدين؛ لكنه لم يجد خارج الإيمان ضماناً ضد المرض أو الفقر أو الفقد. خسر سند قلبه، وبقيت عليه آلام الدنيا. ثم وصل إلى الآخرة بلا يقين ولا عمل.

سُورَةُ الْحَجِّ

وهذا هو الخسران الكامل: أن يتحمل الإنسان عناء الدنيا ثم يحرم ثواب الصابرين، وأن يفقد بعض محبوباته هنا ثم يفقد لقاء الله هناك.

ولهذا جاء التوكيد:

(ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ).

كأن الخسارات الأخرى تتضاءل أمامه. قد يفقد المرء تجارة ثم يعوضها، أو منصباً ثم يعيش كريماً دونه، أو صحة ثم يجد في الصبر قرباً من الله؛ أما أن يفقد ربه من قلبه ويصل إلى الآخرة مفلساً، فذلك هو الخسران الذي لا يستدرك بعد انقضاء العمر.

من يعبد من؟

ثم تكشف السورة المفارقة:

(يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) ○
يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ).

حين لم يجد عند الله ما اشترطه على الله، ذهب يطلب حاجته عند غيره. وهذه هي المأساة: ترك القادر لأن القدر لم يجر على هواه، ثم لجأ إلى عاجز لا يملك له ضرراً ولا نفعاً.

إن المنقلب عن الإيمان لا يتحرر من الحاجة؛ يبقى خائفاً، راجياً، طالباً للأمان. لكنه ينقل خوفه ورجاءه إلى مخلوق، أو مال، أو سلطة، أو صنم، أو فكرة، أو جمهور. فإذا به يخضع لما هو أفقر منه، ويطلب الحماية ممن لا يملك حماية نفسه.

سُورَةُ الْحَجِّ

قال أولاً: (مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ)، فنفى عن المعبود المصطنع القدرة الذاتية. ثم قال: (لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ)، لأن اتخاذه معبودًا ووليًّا يوقع صاحبه في أعظم الضرر، وإن بدا الشيء في ذاته عاجزًا. فالصنم لا يبطش بيده، لكن عبادته تهلك العابد. والمخلوق قد لا يملك رزقك، لكن تعلقك المذل به يفسد قلبك وكرامتك.

ثم وصفه بقوله:

(الْبَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَالْبَيْسَ الْعَشِيرُ).

المولى هو من يُرجى قربه ونصره، والعشير هو صاحب الملازم. لكن هذا المعبود لا ينصر من والاه، ولا يحسن صحبته، ولا يثبت معه عند الشدة. إنها علاقة تقوم على الوهم في الدنيا، ثم تتحول إلى تبرؤ وعداوة في الآخرة.

وكل من اتخذ شيئاً من دون الله مركزاً مطلقاً لقلبه سيكتشف يوماً سوء هذه الصحبة. المال يفارقه، والسلطة تتخلى عنه، والجمهور ينساه، والجسد يضعف، والأوثان البشرية تموت أو تعجز.

أما الله، فهو الولي الذي لا تنقطع ولايته عند القبر، ولا تعجز رحمته عند اشتداد الكرب، ولا يحول بينه وبين عبده فقر ولا ضعف ولا خفاء.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل السابع

الأنهار التي تجري من تحت اليقين

بعد صور الجدل والتكبر والعبادة القلقة على الحرف، تفتح السورة نافذة السكينة:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ).

إنه انتقال من الحافة المضطربة إلى الجنات المستقرة، ومن المنقلب على وجهه إلى المؤمن الذي أدخله الله دار كرامته، ومن أولياء لا يملكون ضراً ولا نفعاً إلى الإله الذي يفعل ما يريد.

ولم يقل: يدخل المؤمنين فحسب، بل جمع بين:

(آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

فالإيمان أصل باطن، والعمل ثمرته الظاهرة. وإذا لم يثمر الأصل مع القدرة، كان في دعوى رسوخه خلل. وليس العمل الصالح ثمناً يساوي الجنة؛ ففضل الله أعظم، لكنه علامة الصدق، وطريق التزكية، وموضع الابتلاء.

ووصف الجنات بجريان الأنهار من تحتها. والماء في السورة أعاد الحياة إلى الأرض الهامدة، وهو هنا يجري في دار الحياة الكاملة. كأن ماء الرحمة يمتد من إحياء الأرض في الدنيا إلى أنهار الخلود في الآخرة؛ فمن عرف المنعم في قطرة المطر، ساقه الإيمان إلى أنهار الجنة.

ثم جاءت الخاتمة:

(إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ).

قبلها رأينا الإنسان يربط عبادته بما يريد هو: إن جاءه الخير ثبت، وإن جاءته الفتنة انقلب. فجاءت هذه الجملة لتعيد ميزان العبودية: الله يفعل ما يريد، لا ما تشترطه عليه الأهواء.

الإيمان ليس أن يجعل الإنسان إرادته حاکمة على إرادة الله، بل أن يثق بأن إرادة الله صادرة عن علم كامل وحكمة كاملة ورحمة كاملة، ولو خفي عنه وجه التدبير.

وهنا يستقر القلب بعد أن كان على حرف. إنه لا يستقر لأن أحداث الحياة أصبحت كلها سهلة، بل لأنه انتقل من الثقة بالحدث إلى الثقة برب الحدث، ومن الاطمئنان بالعطاء إلى الاطمئنان بالمعطي.

فإن أقبلت النعمة شكر، وإن جاءت الفتنة صبر، وإن انكشف له وجه الحكمة حمد، وإن خفي عنه سَلَم؛ لأنه لا يعبد الله على حافة العطاء، بل يعبده من قلب اليقين.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثامن

من اختنق غيظاً من نصر الله

بعد أن قررت السورة أن الله يفعل ما يريد، عرضت صورة نفسية عجيبة لمن يضيق بنصر الله لرسوله ودينه:

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ).

في مرجع الضمير في قوله: (يَنْصُرُهُ) كلام للمفسرين، وأظهر ما ينسجم مع سياق الصراع على الرسالة أن المعنى: من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله محمداً ﷺ ودينه في الدنيا والآخرة. وقد حمل بعض أهل التفسير الآية على معنى أوسع يتصل بمن ييأس من نصر الله ورزقه؛ غير أن مركز الصورة واحد: إنسان تضيق نفسه بما قضاه الله، فيتوهم أن حيلته تستطيع أن تمنع نفاذ الإرادة الإلهية.

إنها آية تكشف أن خصومة الباطل مع الحق ليست عقلية دائماً. قد تُقام الحجج، وتتضح البراهين، ويبقى في النفس غيظ لا تزيله الحجة؛ لأن صاحبه لم يكن يبحث عن الحقيقة، بل كان يريد ألا تنتصر الحقيقة.

هناك من لا يكتفي بأن يعرض عن النور، بل يؤلمه أن يراه منتشرًا. يغیظه أن يجد الوحي قلوبًا تستجيب له، وأن يرى المستضعفين ينهضون بالإيمان، وأن تتحول الكلمة المحاصرة إلى أمة، والدعوة المطاردة إلى تاريخ، والدم المراق إلى حياة في ضمير الأجيال.

سُورَةُ الْحَجِّ

وذلك لأن انتصار الحق يهدم الصورة التي صنعها الباطل لنفسه. فإذا انتصر الرسول، ظهر كذب المكذب. وإذا ثبت المؤمن تحت الأذى، انكشف ضعف الذي توهم أن التعذيب قادر على انتزاع العقيدة. وإذا بقيت الرسالة بعد موت محاربيها، تبين أن أعمار الطغاة أقصر من أن توقف كلمة الله.

صورة اليناس من تغيير القدر

قال تعالى:

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ).

السبب هو الحبل وما يُتوصَّل به إلى الشيء، والسماء تطلق في العربية على جهة العلو، ومنها سقف البيت. وقد صوّر جمهور من المفسرين حال من اشتد غيظه ويأسه بصورة من يمد حبلًا إلى سقف، ثم يقطع نفسه عن التنفس أو يقطع الحبل بعد إحكامه، فلينظر: هل يبلغ تدبيره أن يذهب بما يغيظه من نصر الله؟

إنها صورة قاسية في تهكمها بالقدرة البشرية حين تتحدى قدر الله. افعل أقصى ما يمكن أن يفعله الغيظ بصاحبه، واستنفد آخر حيلة، فهل يغير ذلك وعدًا كتبه الله؟ هل سقوط المعترض يمنع ارتفاع الحق؟ وهل اختناقه يغيظه يحجب الهواء عن الرسالة؟

ليست الآية دعوة إلى إهلاك النفس، معاذ الله، وإنما تصوير للتحدي المستحيل، وفضح لعجز الكيد حين يُراد به إبطال ما أَراده الله.

سُورَةُ الْحَجِّ

وفي قوله: **(فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)** مواجهة للنفس بنتيجة فعلها. إنك قد تؤذي نفسك بغیظك، لكنك لا تؤذي وعد الله. وقد يحترق قلبك حسداً، لكن النور الذي تكرهه سيواصل طريقه.

وهكذا يصبح الحقد عقوبة يحملها الحاقد في داخله قبل حساب الآخرة. فالمؤمن يفرح بنعمة الله حيث نزلت، أما الحاسد فيتألم بكل خير لا يمر من خلاله. كل نجاح للآخرين جرح، وكل قبول للحق هزيمة شخصية، وكل ظهور لفضل الله في غيره نار جديدة.

وما أشقى من جعل سعادته متوقفة على توقف فضل الله عن عبادته!

نصر لا تقيسه العين العاجلة

قال سبحانه:

(أَنْ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ).

فالنصر هنا ممتد في الدارين. وقد يقصر نظر الإنسان النصر على الغلبة العاجلة، وكثرة العدد، واتساع السلطان؛ لكن النصر في ميزان الوحي أعمق من ذلك. قد ينتصر الحق بثبات صاحبه وإن قُتل، وبانتشار كلمته وإن حُوصِر، وبانكشاف عدالة قضيته وإن تأخر الفتح، وبحفظ قلبه من الانحناء وإن أثقلوا جسده بالقيود.

ليس كل غالب في لحظة منتصراً في حقيقة التاريخ، ولا كل مهزوم في ميدان خاسراً عند الله. كم من طاغية كسب معركة ثم خسر المعنى، وكم من شهيد غادر الأرض فصار دمه بداية يقظة أمة.

سُورَةُ الْحَجِّ

أما النصر الكامل ففي الآخرة، حين تنتهي قدرة الباطل على التزييف، ويقف كل خصم بلا جمهور ولا جند ولا دعاية، وتظهر الحقائق في نور العدل الإلهي.

فمن ضاق بنصر الله في الدنيا، فكيف يحتمل ظهوره الكامل يوم القيامة؟

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل التاسع

آيات بينات وقلب يختار العمى

بعد ذلك يقول سبحانه:

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ).

الإشارة إلى هذا القرآن الذي يأتي بحججه وصوره وهداياته على هذا النحو المتين. ولفظ (أَنْزَلْنَاهُ) يرد الكلام إلى مصدره العلوي: هذا الكتاب لم ينبت من ثقافة الأرض، ولم تصنعه رغبات البشر، بل نزل من عند الله ليقود الإنسان من ضيق الحس إلى سعة الغيب، ومن تنازع الأهواء إلى وحدة الحق.

ووصف الآيات بأنها (بَيِّنَاتٍ): واضحات في دلالتهم، كاشفات لما يحتاجه الإنسان في طريقه إلى الله. والبيان في القرآن ليس تسطيحاً للمعنى؛ فقد تكون الآية عميقة لا ينفد عطاؤها، وهي مع ذلك بيّنة في أصل هدايتها. البحر عميق، لكن الطريق إليه ظاهر.

غير أن وضوح الدليل لا يجبر القلب على الإيمان؛ ولهذا قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ).

الهداية فضل من الله، يفتح لها من يعلم فيه طلب الحق واستعداده لقبوله، ويحببها لمن أثر العمى بعد قيام البيان. وليس المراد أن الإنسان آلة لا إرادة لها؛ فالقرآن نفسه يذم الإعراض والجدل والتكبر والانقلاب، مما يدل

سُورَةُ الْحَجِّ

على مسؤولية الإنسان عن موقفه. لكن إرادة الإنسان كلها قائمة داخل سلطان الله، ولا يبلغ أحد نور الهداية استقلالاً عن فضله.

إن العقل يرى الدليل، لكن الله هو الذي يمنح القلب نور الانتفاع به. وكم من إنسان حفظ الحجة ولم يخضع لها، وكم من آخر سمع آية واحدة فوجد فيها مفتاح عمره كله. ليست القضية قوة الذكاء وحدها؛ بل صدق الطلب، ونزاهة القلب، والتجرد من سلطان الهوى، ثم فضل الله فوق ذلك كله.

ومن هنا كان المؤمن يسأل الهداية وهو مؤمن؛ لأنه يعرف أن الهداية ليست محطة وصل إليها ثم استغنى، بل مدد يحتاج إليه في كل اختيار، وكل فتنة، وكل فهم، وكل خطوة.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل العاشر

المختلفون جميعاً أمام حكم واحد

تنتقل السورة من الفرد المجادل إلى الجماعات الدينية المختلفة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

إنها خريطة واسعة للتدين البشري في عصر التنزيل، تُعرض لا لتدوين الفروق بينها، بل لإحالتها إلى حكم الله. فالناس قد يختلفون في الأسماء والكتب والتصورات والمعبودات، وقد يدعي كل فريق لنفسه النجاة؛ لكن الفصل الأخير ليس للدعوى ولا للانتساب المجرد.

(إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

والفصل يحمل معنى الحكم والتمييز وإنهاء النزاع. ففي الدنيا تختلط الدعوى، ويتزين الباطل، وقد يعلو صوت على صوت، ويملك فريق وسائل القوة فيفرض روايته على الناس؛ أما يوم القيامة فلا يبقى للاسم بريق يخدع، ولا للقوة قدرة تحرف الميزان.

هناك تُفصل الحقائق عن الشعارات، والإيمان عن ادعائه، والاتباع الصادق عن الانتساب التاريخي، والعبادة لله عن العادات التي لبست لباس الدين.

وفي هذا تعليم للمؤمن ألا يتألى على الله في أحكام الأفراد، ولا يجعل الهوية المجردة بديلاً عن صدق الإيمان والعمل. فالنجاة ليست امتيازاً عرقياً، ولا ميراثاً عائلياً، ولا لقباً يحمله الإنسان بينما يناقض سلوكه معنى العبودية.

ولكن هذا لا يعني أن العقائد سواء؛ فلو كانت كذلك لما كان للفصل معنى. إنما يعني أن الله وحده يفصل فيها بعلم تام وعدل تام، وأن على الإنسان أن يتبع الحق الذي أنزله الله، لا أن يكتفي بالاسم الذي وجده في بيئته.

ثم جاء التعليل:

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

الفصل الإلهي كامل لأن الشهادة الإلهية محيطية. البشر يحكمون بما ظهر لهم، وقد تخفى عنهم النيات والوقائع، وقد تصل إليهم شهادة مبتورة أو رواية مصنوعة. أما الله فشاهد على أصل الفكرة، وحركة القلب، وصدق البحث، وقيام الحجة، والفرص التي أُعطيت للإنسان، والأعذار التي يدعيها.

شهد لحظة الميل الأولى، وشهد مقاومة الضمير، وشهد الكلمة التي قيلت في الخفاء، وشهد أثرها في نفوس الآخرين. فلا يضيع عنده حق، ولا ينجو في حكمه باطل لأنه أتقن التخفي.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الحادي عشر

الكون ساجد والإنسان وحده يتردد

بعد أن عرضت السورة اختلاف الجماعات، رفعت البصر إلى مشهد كوني جامع:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ
الْعَذَابُ).

يا له من موكب هائل! السماوات والأرض، والشمس والقمر والنجوم،
والجبال والشجر والدواب، ثم الإنسان. كل الوجود في محراب واحد، وكل
المخلوقات خاضعة لأمر واحد، وكل شيء يؤدي طريقته التي يعلمها الله في
السجود.

بدأت السورة بزلزلة الساعة، وها هي تعرض الآن سجود الكون. فالكون
الذي سيضطرب يوم القيامة لم يكن متمردًا على ربه؛ إنه مطيع في استقراره
واضطرابه، في طلوع شمسهِ وأفولها، وفي ثبات جباله ودكها. لا يقع شيء
من حركته خارج الأمر.

ألم تر بقلبك؟

قال: (أَلَمْ تَرَ)، مع أن كثيرًا من هذا السجود لا تراه العين في هيئته. إنها
رؤية البصيرة التي تقرأ آثار الخضوع في انتظام الكائنات. ترى الشمس لا

سُورَةُ الْحَجِّ

تتقدم على مدارها استكباراً، والقمر لا يرفض منازلها، والنجم لا يخرج على القانون الذي قدره الله، والبذرة لا تمتنع عن الانشقاق حين يأتيها إذن الحياة.

إن انتظام الكون لون من ألوان السجود. فالسجود ليس مجرد هيئة بشرية معروفة، بل خضوع المخلوق لقانون خالقه على الوجه الذي أراده الله له. وكل شيء يسجد سجوداً يليق بتكوينه، لا نحيط بكيفيته، لكننا نؤمن بحقيقته.

ثم أفردت الآية أجراماً ومخلوقات بعد عموم قوله: **(مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)**، لتجعل المشهد محسوساً متدرجاً أمام النظر.

(وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ).

هذه الأجرام التي عبدها البشر عبر التاريخ تظهر في الآية عابدة لا معبودة. إن القرآن يحرر الإنسان من الانحناء للمخلوق بأن يريه المخلوق نفسه منحنياً لله. كيف تسجد للشمس وهي تسجد لخالقها؟ وكيف تطلب مصيرك من نجم لا يملك أن يغير المسار الذي رسمه الله له؟

كل ما بهر عينيك من عظمة الكون هو عبد. وعظمته لا تمنحه حق العبادة، بل تزيد الدلالة على عظمة من خلقه.

ثم:

(وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ).

الجبال بارتفاعها وصلابتها، والشجر بنمائه وجماله، والدواب بحركتها وغرائزها؛ عوالم مختلفة في الهيئة والوظيفة، يجمعها الخضوع. الجبل

سُورَةُ الْحَجِّ

ساجد وهو قائم، والشجر ساجد وهو نائم، والدابة ساجدة وهي سائرة. ليست العبرة بصورة واحدة، بل باستسلام كل مخلوق للغرض الذي خلقه الله له.

وهذا معنى تربوي عظيم: أن سجود الإنسان لا ينبغي أن ينتهي حين يرفع جبهته عن الأرض. يسجد العقل حين يذعن للحق، ويسجد المال حين يجري في الحلال، وتسجد القوة حين تحمي الضعيف، ويسجد القلم حين ينصر الصدق، ويسجد الوقت حين يُصرف في الغاية التي خُلق الإنسان لها.

إن الصلاة تعلم الجسد هيئة السجود، ثم ينبغي للحياة كلها أن تتعلم معناه.

الانقسام داخل النوع الإنساني

حين وصلت الآية إلى الناس لم تقل إنهم جميعًا يسجدون سجود الطاعة والاختيار، بل قالت:

(وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ).

هنا يظهر امتياز الإنسان وخطره. الأشياء كلها خاضعة في نظامها، أما الإنسان فقد مُنح إرادة يختار بها أن يوافق سجوده الاختياري خضوعه التكويني، أو أن يتمرد بقلبه وهو عاجز عن الخروج من سلطان الله بجسده.

الكافر نفسه خاضع لله من جهة تكوينه؛ قلبه ينبض بقدر، وعمره يجري إلى أجل، وجسده يمرض ويضعف دون استئذانه. لكنه يرفض أن يحول هذا الخضوع الكوني إلى عبادة واعية. يحمل في كل خلية دليل عبوديته، ثم ينكرها بلسانه.

وما أعجب الإنسان: قد يقف منتصبًا يرفض السجود، بينما ظلّه ساجد،
وجسده محكوم، وأنفاسه معدودة، والأرض تحته والسماء فوقه تشهدان
بخضوع الوجود كله!

الكرامة التي لا يمنحها إلا الله

قال تعالى:

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ).

الإهانة الحقيقية ليست فقر الثوب، ولا ضالة المنصب، ولا قلة الأتباع. قد
يكون الإنسان مجهولًا في الأرض وهو مكرم عند الله، وقد تتبعه الجموع
وهو مهين في ميزان السماء.

الإهانة الكبرى أن يُحرم القلب من السجود، وأن يتركه الله لما اختاره من
كبره، وأن يصبح أسير شهوته وهو يظن نفسه حرًا، وأن يطلب كرامته عند
مخلوق مثله فيزداد خضوعًا وذلًا.

ومن أهانه الله بسبب إعراضه فلا يستطيع الخلق أن يمنحوه كرامة حقيقية.
قد يمنحونه لقبًا، أو منصة، أو موكبًا، أو صورة عظيمة في أعين الناس؛
لكن كل ذلك غلاف خارجي لا يعالج مهانة الروح حين تنقطع عن ربها.

وبالمقابل، من أكرمه الله بالهداية والسجود، فلن تضره إهانة البشر. قد
يسخرون منه، أو يحاصرونه، أو يرمونه بالتخلف، لكن جبهته تعرف
طريقها إلى الله، وقلبه متصل بمصدر العزة.

سُورَةُ الْحَجِّ

هذه هي الكرامة التي يبينها الحج: أن يخلع الإنسان علامات التفاخر، ويلبس ما يشبه لباس سائر الحجاج، ويقف وسط الجموع فردًا من عبيد الله، فلا يستمد قيمته من ثوبه ولا قومه ولا طبقته، بل من صدق وقوفه بين يدي ربه.

سجدة تتوسط السورة وتفسرها

عند هذه الآية يسجد المؤمن، وكأن التلاوة لم تعد وصفًا لمشهد بعيد، بل دعوة إلى دخوله. لقد سمعت أن الشمس والقمر والنجوم والجال والشجر والدواب تسجد، فماذا ستفعل أنت؟

السجود هنا جواب عملي عن الحجة. لا يكفي أن تعجب ببلاغة المشهد، بل ينبغي أن تجد له أثرًا في الجبهة والقلب. فالقرآن لا يريد قارئًا يقف خارج الصورة متأملًا جمالها فقط؛ يريد أن يضمه إلى موكب العابدين.

حين تسجد، فإنك لا تبدأ حركة منفردة؛ إنك تلتحق بالحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الكون. تخرج من شذوذ الكبر إلى انسجام العبودية، ومن ضيق الأنا إلى رحابة التسبيح العام.

ويصبح موضع جبهتك على الأرض أعلى مواضع روحك؛ لأنك كلما نزلت لله ارتفعت به، وكلما أخلت نفسك من دعوى العظمة ملأها الله من كرامة القرب.

إن الكون كله محراب، والحياة كلها رحلة حج، والسعيد من أدرك النداء قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه إلا قلبٌ عرف كيف يسجد.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثاني عشر

خصمان اختصما في ربهم

بعد أن عرضت السورة مشهد السجود الكوني، انتقلت إلى مشهد الخصومة البشرية:

(هَٰذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصَمَا فِي رَبِّهِنَّ).

اختصرت الآية تاريخ الصراع كله في خصمين: خصم آمن بالله، فعرفه بما وصف به نفسه وأخلص له العبادة؛ وخصم كفر به، أو أشرك معه غيره، أو جدد رسالته. تتعدد الأسماء والرايات والأزمنة، لكن أصل الخصومة واحد: لمن تكون العبودية؟ ومن له الحكم الأعلى؟ وبأي ميزان يعرف الإنسان الحق والخير والمصير؟

وجاء اسم الإشارة: (هَٰذَانِ)، فكأن الخصمين شاخصان أمام العين. فالقرآن لا يعرض القضية بوصفها خلافاً نظرياً بعيداً، بل مواجهة حاضرة تمتد آثارها إلى القلب والحياة والتاريخ.

ثم جمع الفعل فقال: (اِخْتَصَمَا) مع أن المذكور خصمان؛ لأن كل خصم يضم فريقاً وجماعة. إن المواجهة ليست بين فردين، بل بين معسكرين عظيمين تتوارثهما الأجيال: معسكر العبودية لله، ومعسكر الاستكبار عنه.

وقد قيل إن للآية سبباً يتعلق بمن تبارزوا يوم بدر؛ لكن ألفاظها أوسع من الحادثة التي تجلت فيها. فبدر صورة تاريخية للخصومة الكبرى، وليست

سُورَةُ الْحَجِّ

نهايتها: إيمان يخرج ضعيف العدد ثابت القلب، وكفر يخرج مستندًا إلى القوة والغرور، ثم يفصل الله بينهما بحكمه.

الاختصام في الرب

لم تقل الآية: اختصموا في الدنيا أو في المصالح، بل قالت: (فِي رَبِّهِمْ). فكل ما سيأتي من صراع ومصير متفرع عن الموقف من الربوبية والعبودية.

الذين عرفوا ربهم عرفوا أن الأمر له، وأن الحياة ابتلاء، وأن القوة أمانة، وأن الإنسان لا يملك أن يجعل هواه شريعة. والذين أخطؤوا معرفة ربهم اختل ميزانهم كله؛ إما أن يجحدوه، وإما أن يقرؤا به ثم ينازعوه حقه في العبادة والتشريع، وإما أن يصنعوا وسائط وأندادًا يمنحونها من الخضوع ما لا ينبغي إلا لله.

ولهذا لم تكن العقيدة مسألة منعزلة في زاوية العقل. إن تصور الإنسان لربه يتسرب إلى تصوره لنفسه وللناس وللحياة. فمن آمن بالله واحد رأى البشر عبادًا لرب واحد، فلا يحق له تأليه ذاته عليهم. ومن اعتقد أن القوة هي الحقيقة العليا عبدها ولو لم يسمها إلهًا، وجعل الضعيف مادةً لمصلحته.

كل ظلم في الأرض يحمل في جذره منازعةً لمعنى العبودية؛ لأن الظالم يتصرف لحظة ظلمه كأن لا حساب وراءه، أو كأنه يملك ما ليس له.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثالث عشر

ثياب من نار ومقامع من حديد

بعد ذكر الخصومة جاء الفصل في مصير الخصمين:

(فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ
يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۖ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا
أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَتُوْفُوا بِعَذَابٍ مُّحْرِقٍ).

مشهد شديد تتلاحق فيه الصور من غير فسحة، كأن بنية العبارة نفسها
تحاصر المعذبين كما تحاصرهم النار.

بدأ بالثياب:

(قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ).

الثوب في الدنيا وقاية وزينة وستر، لكنه ينقلب هنا إلى نار تحيط بالجسد.
وما أشد هذا الانقلاب! الشيء الذي يلتصق بالإنسان ليحميه صار مادة
عذابه، والزينة التي ربما تكبر بها على الناس صارت غلافاً من لهب.

ولفظ (قُطِّعَتْ) يوحي بأنها أعدت على مقادير أصحابها؛ فلا هي نار عابرة
يمرون بها، ولا ثياب واسعة يمكنهم الانفلات منها، بل إحاطة توافق الجسد
وتلازمه.

إن الجزاء في القرآن ليس فوضى، وإنما ملائمة بين العمل ومآله. فالذي
لبس في الدنيا ثوب الكبر والباطل، وأحاط قلبه بجحود الحق، يلبس هناك
ثوباً يكشف الحقيقة الباطنة التي اختارها.

ثم يأتي العذاب من أعلى:

(يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ).

والصب يوحى بالكثرة والاستمرار والقوة. وخصت الرؤوس لأنها موضع الفكر والتدبير والاستعلاء؛ منها خرجت تصورات الجحود، وفيها دُبرت المكائد، وبها رفع المتكبر رأسه عن السجود.

ومن الأعلى ينفذ الحميم إلى الداخل:

(يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ).

جمع العذاب بين الباطن والظاهر؛ فلا يحمي الجلد ما في الداخل، ولا ينجو الباطن إذا احترق الظاهر. إن الحقيقة تحيط بالإنسان كله كما أحاط الجحود بقلبه وعمله.

وفي الفعل (يُصْهَرُ) قسوة صوتية تناسب المشهد؛ فهو لا يدل على ألم يمس السطح، بل على إذابة تبلغ الأعماق.

ثم:

(وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ).

المقامع أدوات القمع والضرب. واللفظ نفسه ثقيل الجرس، يشبه في وقعه ثقل الحديد. إنهم الذين لم تقمعهم الموعظة عن الظلم، ولم تردعهم آيات الله عن الكبر، فصار لهم قمع من نوع آخر بعد أن انتهى زمن الاختيار.

غم لا منفذ منه

قال سبحانه:

(كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا).

لم يقل: من نار فحسب، بل قال: (مِنْ غَمٍّ). فالغم عذاب النفس حين يطبق عليها الكرب فلا تجد منفذًا. وهنا يجتمع احتراق الجسد وانسداد الأمل.

و(كُلَّمَا) تدل على التكرار: كلما ظنوا أن حركةً ما قد تقربهم من الخروج، أعيدها. يتجدد الأمل لحظة ليكون انكساره لونًا آخر من العذاب.

في الدنيا كان باب التوبة مفتوحًا، وكان بإمكان الإنسان أن يخرج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بخطوة صادقة؛ لكنه أبى الخروج حين كان الخروج ممكنًا. فلما جاء يوم الجزاء أراد أن يخرج، وانتهى زمن الاختيار.

وهذه من أشد حقائق الآخرة: أن الدنيا دار يمكن فيها تغيير الطريق، أما الآخرة فدار ظهور النتيجة. هنا تستطيع أن تنتقل من معصية إلى توبة، ومن كبر إلى سجود، ومن ظلم إلى رد الحقوق؛ وهناك لا يصنع الندم عمرًا جديدًا.

ثم يقال لهم:

(وَأُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ).

سُورَةُ الْحَجِّ

الذوق مباشرة لا ينفع معها جدل. لقد جادلوا في الله بغير علم، وشكوا في البعث، وربما سخرُوا من الوعيد؛ أما الآن فقد انتقلت الحقيقة من السمع إلى الذوق.

وهذه الصور ليست لإشباع خيال قاسٍ، وإنما لإنقاذ الإنسان من القسوة التي تقوده إليها. الإنذار رحمة قبل وقوع العذاب؛ لأنه يمنح المخاطب فرصة للنجاة. وكل آية تخوفك من النار إنما تريد أن تبعدك عنها.

من ثياب النار إلى أساور النور

وفي مقابل المشهد السابق، يأتي مشهد المؤمنين:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ).

إن القرآن يضع الصورتين متقابلتين حتى يظهر الفرق بين الطريقين. هناك ثياب من نار، وهنا لباس من حرير. هناك حميم يصب من فوق الرؤوس، وهنا أنهار تجري من تحت الجنات. هناك مقامع من حديد، وهنا أساور من ذهب ولؤلؤ. هناك غم ومحاولة خروج، وهنا دخول بإكرام واستقرار.

ليست المقابلة زينة في البناء، بل تجسيد للعدل. فالإنسان لا يمضي إلى مصير مجهول المصادفة؛ إنما يزرع الآن صورة مقامه القادم.

الدخول الذي يتولاه الله

قال سبحانه:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ).

نسب الإدخال إلى ذاته العلية، وفي ذلك كرامة فوق نعيم المكان. فليس أعظم ما في الجنة أشجارها وأنهارها وذهبها وحريرها، بل أنها دار أدخل الله إليها أوليائه برحمته ورضوانه.

وكرر الوصف:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

فالجنة لا تُنال بالأمانى المجردة، ولا بمجرد الانتساب، بل بإيمان يثمر عملاً؛ مع اليقين بأن العمل مهما عظم لا يستقل بثمن نعيم لا ينفد، وإنما يدخل المؤمن برحمة الله وفضله.

زينة لم تعد تفتن

قال تعالى:

(يُحَلَّونَ فِيهَا).

جاء الفعل مبنياً لما لم يسم فاعله، ليحمل معنى الاحتفاء بهم؛ كأن هناك من يتولى تحليتهم في دار الكرامة. لم يطلبوا الزينة، بل جاءت إليهم مكافأة. أما في الدنيا فقد كان عليهم أن يزكوا نفوسهم من عبادة المظهر، وأن يقدموا الحق على البريق؛ فلما لم تستعبدهم الزينة هنا، أكرمهم الله بجمالها الخالص هناك.

وزينة الجنة لا تحمل آفات زينة الدنيا؛ لا كبر، ولا حسد، ولا خوف من زوال، ولا تنافس يحطم المودة. الأشياء هناك لا تحجب عن الله، بل تفيض من رضوانه.

(وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ).

اللباس الذي يلامس أجسادهم لينُّ كريم، في مقابل الثياب النارية التي تحيط بأجساد الكافرين. وكأن الظاهر صار مرآة للباطن: قلوب لانته للحق فألبست لين النعيم، وقلوب قست عن الذكر فأحيطت بما يناسب قسوتها.

لكن نعيم المؤمنين لم يبدأ في الجنة من الذهب والحريز؛ بدأ قبل ذلك بهدائيتين:

(وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ).

الكلمة الطيبة طريق إلى الجنة

قبل أن تصف الآية طريق المكان، وصفت طريق اللسان:

(وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ).

هَدُوا في الدنيا إلى كلمة التوحيد، وإلى الذكر، والصدق، والشكر، وتلاوة الوحي، والدعوة بالحكمة، وكل قول طيب يحبه الله. وَهْدُوا في الآخرة إلى الحمد والسلام وما يليق بدار الطيبين.

إن الكلمة ليست صوتًا عابرًا؛ إنها طريق. كلمة قد ترفع قائلها، وكلمة قد تهوي به. واللسان أحد الأدلة على الجهة التي يسير إليها القلب؛ فإن امتلأ القلب بتوحيد الله فاض اللسان ذكرًا وصدقًا ورحمة، وإن امتلأ بالكبر فاض سخريَّةً وأذىً وجدالًا.

وفي تكرار (وَهْدُوا) تنبيهه إلى عظمة نعمة الهداية. لم يهتدوا بأنفسهم استقلالًا، بل هداهم الله إلى القول الطيب، ثم هداهم إلى الطريق الموصل إليه:

(وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ).

سُورَةُ الْحَجِّ

والحميد هو المستحق للحمد في ذاته وأسمائه وأفعاله. فالصراط ليس مجرد مجموعة أوامر، بل طريق إلى الله الحميد. وكل تكليف عليه يحمل في عمقه حكمة تستحق الحمد، وإن شق على النفس أول الأمر.

الحج من هذا الصراط، والجهاد من هذا الصراط، وتعظيم الحرمات من هذا الصراط. قد يبدو الطريق متنوع التكاليف، لكنه واحد في وجهته: إخراج الإنسان من عبودية الهوى إلى عبودية الحميد.

ومن عرف أن ربه حميد، لم يظن أن أمره عبث، ولا أن منعه بخل، ولا أن ابتلاءه ظلم. يحمده في العطاء لأنه كريم، ويحمده في المنع لأنه حكيم، ويحمده قبل انكشاف المقادير وبعدها؛ لأن الحمد متعلق بكمال الله، لا بتقلب شعور الإنسان وحده.

بعد أن عرضت السورة مصير الخصمين، اقتربت من مركزها الظاهر:
المسجد الحرام والحج إليه:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ
سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُزِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ).

إنه انتقال من الصراع العقدي إلى صورة محسوسة من آثاره: صد الناس
عن طريق الله وعن بيته. فالانحراف لا يبقى فكرة داخل الرأس؛ حين يملك
القوة يتحول إلى منع، وحصار، وتحكم في حق الآخرين أن يعبدوا الله.

وجاء الفعل المضارع:

(وَيَصُدُّونَ).

ليصور الصد فعلاً متجدداً مستمراً، لا حادثة انقضت. إنهم كفروا، ثم لم
يكتفوا بكفرهم، بل جعلوا أنفسهم حواجز بين الناس وربهم.

وهنا ينكشف الفارق الأخلاقي بين الضلال الفردي والطغيان: قد يضل
الإنسان في نفسه، لكن الجريمة تتفاقم حين يستخدم سلطانه ليحرم الآخرين
من الهدى والعبادة.

الحرم طريق إلى الله

قرنت الآية بين:

(سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ).

فالمسجد الحرام معلم مكاني، لكنه متصل بسبيل الله. ليس حجرًا مقدسًا منفصلًا عن التوحيد، ولا رمزًا قوميًا تستأثر به جماعة؛ إنه بيت أقيم لكي يدل على الله، ويجمع عباده حول عبادته.

ولهذا فإن خدمة البيت لا تعني امتلاكه، والقرب الجغرافي منه لا يمنح أحدًا حق احتكار رسالته. قد يسكن المرء بجوار الكعبة ويكون بعيدًا عن رب الكعبة، وقد يأتيها من أقصى الأرض بقلب مخلص فيكون أحق بمعنى القرب.

قال تعالى:

(الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ).

للناس: بهذه السعة الإنسانية التي افتتحت بها السورة. وكأن النداء الأول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) يجد هنا معلمًا أرضيًا يجتمع حوله الناس. فالرب واحد، والأصل واحد، والمصير واحد، والبيت واحد.

ليس البيت لفئة تختص بالله من دون خلقه، بل جعله الله قبلةً وأمنًا ومثابة لعباده.

سواء العاكف والباد

قال سبحانه:

(سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ).

العاكف هو المقيم الملازم، والبادي هو القادم إليه من خارج الحرم. وكلاهما سواء في حق التعبد والقصد والانتفاع بهذا البيت على الوجه الذي شرعه الله.

إنها ضربة قرآنية لكل امتياز مصطنع عند أبواب المقدس. لا تتحول الإقامة إلى ملكية، ولا يحق للقريب أن يحجب البعيد. فبيت الله لا تورث السيادة عليه بالنسب، ولا تُحتكر كرامته بالجوار.

وهذا المعنى يتجسد في هيئة الحج: يأتي الغني والفقير، والعربي والعجمي، وصاحب السلطان والمجهول، فيلبسون لباساً متقارباً، ويتوجهون إلى قبلة واحدة، ويؤدون نسكاً واحداً. تتساقط العلامات التي صنعت بها الدنيا مراتبها، ويبقى الاسم الجامع: عباد الله.

ولكن المساواة في المكان لا تكتمل إلا بالمساواة في الشعور. قد يقف اثنان في صف واحد، ويحمل أحدهما في قلبه استعلاءً على الآخر. لذلك جاء الحج ليهدم الامتياز من الخارج، وعلى الحاج أن يتم الهدم في داخله.

مجرد إرادة الإلحاد

قال تعالى:

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ).

الإلحاد هنا هو الميل عن الحق إلى الظلم والمعصية وانتهاك حرمة المكان. وما أشد الوعيد! فقد علّقه على الإرادة التي تتجه إلى الظلم في الحرم، مما يدل على عظيم حرمة، وأن مجرد القصد الجازم إلى العدوان فيه أمر بالغ الخطورة.

واجتماع (بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) يغلظ المعنى؛ فهو ميل عن الاستقامة متلبس بالظلم. إذ ليس كل ميل في المكان المقدس هفوة عادية؛ بل يحمل اعتداء على حرمة عظمها الله.

فالمكان الذي أُسس ليكون أمناً لا يجوز أن يتحول إلى ساحة تخويف، والبيت الذي جُعل للناس لا يجوز أن يصبح أداة احتكار، والشعيرة التي تجمع القلوب لا ينبغي أن تستخدم لتثبيت العصبية.

إن قداسة المكان لا تبرر ظمناً يقع فيه، بل تجعل الظلم أشد. ولا يكفي أن يرفع الإنسان شعارات التعظيم وهو ينتهك حقوق عباد الله؛ لأن رب البيت هو رب الناس، وتعظيم البيت لا ينفصل عن طاعة من حرّمه.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل السادس عشر

حين دلّ الله إبراهيم على موضع البيت

يقول سبحانه:

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ).

عاد الخطاب بالذاكرة إلى إبراهيم عليه السلام، إلى اللحظة التي هيا الله له فيها مكان البيت وأرشده إليه. والحج في الرؤية القرآنية ليس طقسًا بلا تاريخ؛ إنه استئناف لعهد إبراهيم، وربط للأمة بجذر التوحيد الأول.

قال: (بَوَّأْنَا)، وفي اللفظ معنى التهيئة والتمكين والإنزال في الموضع. فإبراهيم لم يخترع للناس قبلة من عنده، وإنما بوأه الله مكانها. البيت بيت الله، والمكان بتحديد الله، والمناسك بتعليمه؛ فلا مجال للهوى أن يصنع عبادة ثم ينسبها إلى السماء.

أول أساس للبيت: لا تشرك

قبل الأمر بالتطهير والطواف جاء أصل الأصول:

(أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا).

إن أول عمارة للبيت هي عمارة التوحيد. فالحجارة لا تتقدس وحدها إذا امتلأت القلوب بالأنداد، والطواف لا يبلغ غايته إذا بقي القلب يطوف حول غير الله.

وجاءت كلمة (شَيْئًا) نكرة في سياق النهي لتشمل كل شيء: لا صنماً ظاهراً، ولا ولياً يُصرف له ما لا يكون إلا لله، ولا هوى يُقدَّم على أمره، ولا قوة يتوهم الإنسان أنها تستقل بالنفع والضرر، ولا ذاتاً متضخمة تجعل رضاها مركز الوجود.

الحج تفرغ للقلب من الشرك قبل أن يكون انتقالاً للبدن. يقول الحاج: لبيك لا شريك لك لبيك؛ فيعلن أن الاستجابة كلها لله، وأن النعمة له، والملك له، والحمد له. إنها كلمات تهدم كل مركز مزاحم لله في الضمير.

بيتي: إضافة التشريف

قال سبحانه:

(وَطَهَّرْ بَيْتِي).

الله سبحانه منزّه عن أن يحل في مكان أو يحتاج إلى بيت؛ وإنما أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف واختصاص، ليكون موضعاً لعبادته وقبله لعباده.

وهذه الإضافة ترفع قدر المكان، لكنها في الوقت ذاته تلزم خدامه بالتواضع؛ لأنه ليس بيتهم. لا يملكون أن يبدلوا رسالته، أو يمنعوا أهله، أو يجعلوه رمزاً لسلطانهم. هم خدم لبيت الله، وكلما صدقوا في الخدمة غاب شعور التملك.

سُورَةُ الْحَجِّ

والتطهير يشمل تطهير البيت من الأصنام والأرجاس والنجاسات وكل ما يناقض حرمة. ويمتد معناه التربوي إلى تطهير أجوائه من الظلم والصد والتفاخر والرفث والفسوق والجدال.

وكذلك يحتاج القلب، وهو محل معرفة الله ومحبه، إلى تطهير. فما فائدة أن يطوف الإنسان ببيت طاهر، ويحمل في صدره ضغينةً وكبراً ورياءً وتعلقاً بالأنداد؟

إن طهارة المكان دعوة إلى طهارة الإنسان.

حركة العبادة حول البيت

قال تعالى:

(لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ).

مشهد متتابع للحركة التعبدية: طائفون يدورون، وقائمون يصلون، وركع سجود يخفضون أجسادهم لله. البيت ساكن في مكانه، لكن العبادة من حوله حية لا تنقطع.

وبداً بالطائفين لأن الطواف من أخص أعمال البيت. والطواف حركة ظاهرها دوران الجسد، وباطنها إعادة تحديد المركز. فالإنسان في حياته يطوف دائماً حول شيء: حول مصلحته، أو صورته عند الناس، أو ماله، أو محبوبه، أو مشروعه. وجاء الحج لينقل مركز الدوران من الذات إلى أمر الله.

سُورَةُ الْحَجِّ

ليس الحجر هو المقصود بالعبادة، بل رب الحجر والإنسان والكون. ونحن لا نعبد الكعبة، وإنما نتوجه إليها امتثالاً لله؛ ولهذا تكون وحدة القبلة صورة لوحدة المعبود.

ثم ذكر القيام والركوع والسجود، وكأن الجسد كله يدخل عهد العبودية: يقوم توقيراً، ويركع تعظيماً، ويسجد خضوعاً. وكل هيئة تهدم طبقة من الكبر حتى تبلغ الجبهة التراب.

وفي جمع (الرُّكْعِ السُّجُودِ) كثافة حركية، كأن العين ترى جماعات تتوالى من الركوع إلى السجود. لا فراغ في البيت من عبادة، ولا جمود في صلته بالتوحيد.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل السابع عشر

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ

بعد أن يؤي إبراهيم مكان البيت وأمر بتطهيره، جاء الأمر بإعلان النداء:
(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ).

يا لعظمة التكليف! رجل يقف في وادٍ، ثم يؤمر أن ينادي الناس، لا أهل عصره وحدهم. إمكانات البشر محدودة، لكن الذي أمر بالنداء تكفل ببلوغ أثره. وما على الداعية إلا أن يصدق في رفع الكلمة؛ أما إيصالها إلى الآفاق والقلوب والأزمنة فمن شأن الله.

لقد أذن إبراهيم، وما زالت الأفئدة تجيب. مات المنادي، لكن النداء لم يمت؛ لأن الكلمات التي تخرج بأمر الله لا يقاس عمرها بعمر قائلها.

يَأْتُوكَ: إجابة النداء

قال تعالى: (يَأْتُوكَ)، مع أن المقصود مجيئهم إلى بيت الله وأداء نسكه. وفي ذلك تكريم لإبراهيم وربط للحجيج بملته؛ فهم يأتون الموضع الذي أقام فيه معالم التوحيد، ويجيبون النداء الذي كُلف بإعلانه.

لكنهم لا يأتون لشخصه عبادةً، وإنما يأتون مقتدين به في إخلاصه واستسلامه. فتكريم الأنبياء الحق هو اتباعهم إلى الله، لا تحويلهم إلى غاية من دونه.

رجالاً وعلى كل ضامر

قوله: (رَجَالًا) هنا أي مشاةً على أرجلهم، يقابلهم الراكبون على كل ضامر. بدأ بالمشاة؛ لأن في مشيهم ظهورًا للمشقة والعزم. يحملهم الشوق حين لا تحملهم الرواحل، وتختصر المحبة طول الطريق في قلوبهم وإن امتد تحت أقدامهم.

ثم قال:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ).

الضامر هو البعير الذي هزل من طول السفر. لم تصف الآية زينة الركائب، بل وصفت أثر الطريق عليها. كأن مشقة الرحلة مكتوبة على أجسادها. والحج ليس انتقالًا مريحًا في أصله، بل مجاهدة يخرج فيها الإنسان من عاداته واستقراره.

وجاء الفعل مع الرواحل بصيغة جمع المؤنث:

(يَأْتِينَ).

فأبرزها في الصورة كأنها هي القادمة، تحمل أشواق أصحابها، وتقطع بهم المفاز. وفي هذا إحياء للمشهد حتى نكاد نرى القوافل تتقاطر.

(مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ).

سُورَةُ الْحَجِّ

الفج هو الطريق الواسع بين جبلين، ووصفه بالعمق بدل البعد وحده يصور الطريق ممتدًا غائرًا في الأفاق. كأن العين تقف عند البيت، ثم تنظر إلى القوافل وهي تخرج من شقوق الأرض البعيدة، وتهبط من طرق لا يكاد يُرى منتهاها.

وتكرار (كُلِّ) في قوله: (عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) و(مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) يوسع المشهد حتى يشمل تنوع الوسائل والجهات. إنها عالمية التوحيد تتحول إلى حركة بشرية منظورة.

الناس مختلفو الألوان واللغات والأوطان، لكنهم حين يسمعون النداء يتجهون إلى مركز واحد. وما تعجز عنه المشاريع البشرية من جمع القلوب تصنعه كلمة التوحيد؛ لا تلغي اختلافهم، بل تنظمه حول عبودية واحدة.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثامن عشر
ليشهدوا منافع لهم

ثم تكشف السورة بعض مقاصد هذا المجيء:

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ).

قال: (لِيَشْهَدُوا)، ولم يقل: ليعلموا منافع لهم. فالحج معرفة بالمشاهدة والمعاشية. هناك معانٍ لا تُفهم كاملةً من بعيد؛ ينبغي أن تراها متجسدة في الجموع، وأن تمشي إليها، وتلبس لها، وتصبر على زحامها، وتشعر بوحدة القبلة وسط اختلاف الوجوه.

والشهود حضور بالجسد والقلب. فقد يكون الإنسان في مكة بجسده، لكنه غائب عن مقاصد الحج. يرى الجموع ولا يرى الأمة، ويؤدي الحركة ولا يشهد معناها، ويسمع التلبية ولا ينفث لها قلبه.

منافع بلا حصر

تُكرت (مَنَافِعُ) لتبقى واسعة. فهي منافع دينية ودنيوية، روحية واجتماعية، فردية وجماعية: مغفرة وتزكية، علم وتعارف، تجارة مباحة وتعاون، تذكير بتاريخ التوحيد، وشهود لوحدة الأمة، وتربية على الصبر والتجرد والانضباط.

سُورَةُ الْحَجِّ

لم يحصر القرآن الحج في عزلة روحية عن مصالح الحياة، كما لم يحوله إلى سوق مادي. جمع بين المنافع وذكر الله، لتتنظم الدنيا داخل العبودية لا خارجها.

في الرؤية القرآنية لا يلزم أن تكون المنفعة الدنيوية نقيضاً للإخلاص. إنما الخلل أن تتحول المنفعة إلى غاية تبطل العبادة، أو أن يستخدم المقدس ستاراً للجشع. أما أن ينتفع الناس ويتعارفوا ويتبادلوا الخير في ظل ذكر الله، فهذا من سعة الشريعة.

الاسم فوق الذبيحة

قال تعالى:

(وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ).

لم يجعل الذبح حركة مادية صامتة؛ بل ربطها بذكر اسم الله. فالروح التي تمنح العبادة معناها هي التوحيد. والأنعام ليست ملكاً مستقلاً للإنسان، بل رزق من الله: (مَا رَزَقَهُم).

إن ذكر الاسم إعلان بأن الحياة لله، وأن الإنسان لا يملك أن يتصرف فيها بهواه، وإنما ينتفع بها بإذن الخالق ووفق شرعه. وهو كذلك فصل بين نسك التوحيد وذبائح الجاهلية التي تُذكر عليها أسماء الأوثان أو تقصد بها الأرباب المصطنعة.

وحين يقول الحاج: باسم الله، فهو يتذكر أن يده ليست صاحبة الخلق، وأن قدرته على الذبح لا تجعله سيد الوجود، وأن ما بين يديه نعمة من الرزاق.

عبادة تأكل منها الرحمة

قال سبحانه:

(فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ).

هكذا تجمع الشعيرة بين حق النفس وحق المحتاج. يأكل صاحب النسخ؛ فلا رهبانية تحرّم الطيبات، ويطعم الفقير؛ فلا أنانية تجعل العبادة مهرجاً للشعب بجوار الجائعين.

والبائس هو من أصابته شدة ظاهرة، ثم زاده وصف الفقر كشفاً لحاجته. كأن الآية تريد للمتعبد أن يبحث عن جمع بين ألم الحال وقلة اليد.

إن اللحم لا يصل إلى الله، كما ستبين السورة، لكن الرحمة التي تحرك اليد لتطعمه للفقير من آثار التقوى التي يريدها الله. فالنسخ الذي لا يفتح العين على الجائع يظل ناقص الأثر في النفس.

الحج ليس أن يهرب الإنسان من الناس إلى الله، بل أن يعود من قرب به بالله أرحم بالناس. ومن تعظيم شعائر الله أن يجد الفقير نصيبه فيها، وأن تتحول عبادة القادر إلى فرج للمحتاج.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل التاسع عشر

تَفَثُ الْأَجْسَادِ وَعَهْدُ الْقُلُوبِ

قال تعالى:

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

بعد أيام الإحرام وما يصاحبها من ترك الترفيه المعتاد، يأتي الأمر بقضاء التفث: إزالة ما تراكم من آثار الشعث، من حلق أو تقصير ونحوه مما يتم به التحلل من النسك.

لكن ترتيب الآية يكشف أن العناية بالجسد لا تنفصل عن الوفاء بالعهد والطواف. الإسلام لا يحتقر الجسد، ولا يجعله عدوًا للروح؛ يطلب من الإنسان أن يخضعه لله، ثم يعتني بطهارته في حدود الشرع.

الحاج يترك بعض مألوف الزينة زمنًا طاعة، ثم يعود إليها طاعة. ليست القداسة في الشعث ذاته، وإنما في الاستجابة لأمر الله في حال المنع وحال الإباحة.

ولْيُوفُوا نُذُورَهُمْ

الوفاء بالنذر تدريب على صدق الكلمة مع الله. فالإنسان قد يتكلم في ساعة التأثر، ثم يبرد عزمه حين تحين لحظة الوفاء. وجاء الحج ليعلمه أن العهد ليس موجة شعورية، وأن ما التزمه الله لا ينبغي أن يكون أضعف من التزاماته للناس.

سُورَةُ الْحَجِّ

والوفاء أوسع أثرًا من النذر المعين؛ إنه خُلِقَ العبودية. المؤمن وفيٌّ لأن ربه شهيد، لا لأن القانون يراقبه فقط. يفي إذا غاب الناس، وإذا ذهبت المصلحة، وإذا صار الوفاء مكلفًا.

فالحج لا يصنع إنسانًا يؤدي المناسك ثم يخون العهود؛ لأن رب الطواف هو رب المعاملة، ومن لبي لله في المشاعر ينبغي أن تلبي أخلاقه لله في الأسواق والبيوت والخصومات.

البيت العتيق

قال تعالى:

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

العتيق يحمل معنى القدم والشرف، وقيل: العتق من تسلط الجبابة واستيلائهم عليه على وجه الإبطال. وكل هذه الظلال تمنح البيت مهابة التاريخ المحفوظ بعناية الله.

كم مر على الأرض من قصور زالت، وعروش تهدمت، ومدن ابتلعها النسيان؛ وبقي هذا البيت تتجه إليه القلوب. لم يبق لأنه أعظم الأبنية مادة، بل لأن الله ربطه بعهد التوحيد.

يطوف الناس حوله، وتنبدل أجيالهم وهو ثابت، كأنه يعلمهم أن المركز باقٍ والعابرين يتغيرون. جاء إليه آباء لا نعرف أسماءهم، وسيأتي بعدنا أناس لا يعرفون أسماءنا؛ وكلنا نطوف ثم نمضي، ويبقى رب البيت حيًّا لا يموت.

سُورَةُ الْحَجِّ

والطواف بالبيت العتيق تحرير للإنسان من الطواف حول الجديد المتقلب. فالدنيا تصنع كل يوم مركزًا زائفًا: شهرة جديدة، قوة صاعدة، موضعة، فكرة، زعيمًا، سوقًا. ثم تأمر الناس أن يدوروا حوله حتى يزول، فيبحثوا عن مركز آخر.

أما البيت العتيق فيردهم إلى الحقيقة القديمة التي لا تبلى: الله واحد، والإنسان عبد، والعمر رحلة، والنجاة في الاستجابة.

وهكذا ينتهي هذا المقطع كما بدأ: بالتوحيد. بدأ إبراهيم بقوله تعالى: (أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا)، وانتهى الحجاج يطوفون بالبيت العتيق. فكل حركة بين البداية والنهاية شرح عملي لكلمة واحدة: لا إله إلا الله.

البُذْنُ: أجساد عظيمة تحمل معنى العبودية

بعد أن وصفت السورة المخبتين الذين يوجل القلب في صدورهم، ويصبرون، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، عادت إلى الهدى الذي يُساق إلى البيت، ولكنها لم تعد إليه بوصفه حيوانًا يُذبح فحسب، بل بوصفه شعيرة من شعائر الله:

(وَالْبُذْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَبِيرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

البُذْنُ جمع بدنة، وهي من الإبل، وسميت بذلك لعظم بدنها. إنها كتلة ظاهرة من القوة واللحم، ولكن القرآن ينقلها من عالم المنفعة الحيوانية إلى فضاء الدلالة التعبدية:

(جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ).

فليست عظمتها في ضخامة جسدها وحدها، بل في المعنى الذي جعلها الله علامة عليه: توحيده، وذكره، وشكره، وبذل ما رزق لعباده.

وهنا نتعلم أن الأشياء لا تستمد قيمتها النهائية من مادتها، بل من نسبتها إلى الله وموضعها في طاعته. قد تكون الناقة في سوق البيع مالا، فإذا سِيَقَتْ هديًا صارت شعيرة. وقد يكون الصوت حركة هواء، فإذا نطق بالذكر صار عبادة. وقد تكون الحركة دورانا، فإذا كانت طوافًا بأمر الله صارت نسكا.

سُورَةُ الْحَجِّ

إن العبودية تمنح المادة معنى أعلى، وتجعل اليوم العادي موسماً، والمكان المعتاد محراباً، والعطاء المحدود طريقاً إلى رضوان لا ينفد.

لكم فيها خير

قال تعالى:

(لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ).

جاء الخير نكرة ليبقى واسع الدلالة. فيها خير الثواب، وخير الانتفاع، وخير الإطعام، وخير تهذيب النفس من الشح، وخير إظهار شعائر التوحيد.

واللافت أن الخير يعود إلى الناس؛ أما الله فغني عن الذبيحة وعن أصحابها. كل تكليف إلهي يعود نفعه في الحقيقة إلى المكلف. حين يأمر الله بالذكر، لا يزيد ملكه ذكر الذاكرين، لكن قلوبهم هي التي تحيا. وحين يأمرهم بالبذل، لا تبلغه أموالهم، لكن نفوسهم هي التي تتطهر، وفقراؤهم هم الذين يجدون.

إن الله يشرع لعباده ما يصلحهم، ثم يثيبهم على صلاح عاد إليهم؛ وهذه رحمة يتضاعف فيها الفضل.

صَوَافٍ: مهابة الوقوف قبل السقوط

قال سبحانه: (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ).

أي قائمة قد صُفِّت قوائمها على الهيئة المشروعة عند نحرها. والكلمة ترسم مشهداً مهيباً: بدن عظيمة واقفة مصطفة، واسم الله يُذكر عليها، والجموع تشهد.

إنه ليس سفكاً منفلاً، بل نسك منضبط بالذكر والرحمة والشرع. والفرق بين الذبح العبيث والنسك التوحيدي أن الأول تحكم مجرد، أما الثاني فاعتراف بأن الحياة لله، وأن الانتفاع بها لا يكون إلا بإذنه وفي حدوده.

وتقديم الأمر بالذكر قبل وصف النحر يملأ المشهد بحضور الله قبل حضور الدم. ليس المقصود أن تستغرق النفس في صورة الذبيحة، بل أن تتذكر المنعم الذي خلقها وسخرها وأباحها.

فإذا وجبت جنوبها

قال تعالى:

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا).

لم يقل: فإذا ماتت، بل اختار صورة حسية دقيقة: حين تسقط جنوبها على الأرض بعد أن كانت قائمة. في لفظ (وَجَبَتْ) ثقل يناسب سقوط الأجساد العظيمة، وكأن السامع يرى انتقالها من الوقوف إلى السكون.

سُورَةُ الْحَجِّ

وفي المشهد تذكير خفي بمصير كل قوة جسدية. هذه البدن التي بدت عظيمة قائمة لا تلبث أن تسقط، وكذلك جسد الإنسان مهما اشتد. فالقوة ليست صفة ذاتية لا تزول، بل عارية مؤقتة ينهيها أمر الله.

لكن الذبيحة لا تُترك لتضيع، بل تتحول إلى رزق ورحمة:

(فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ).

القانع هو المحتاج الذي يقنع ولا يسأل، أو السائل على اختلاف معروف في التفسير، والمعتَر هو من يتعرض للعطاء ويأتي طالبًا أو متطلعًا إليه. وعلى اختلاف تحديد اللفظين، فإن الآية تستوعب صنفين من المحتاجين: من يظهر حاجته، ومن تحجزه عفته عن إظهارها.

وهذه دقة اجتماعية بالغة؛ لأن الجوع لا يملك صوتًا واحدًا. هناك فقير يطلب، وفقير يصمت، ومن تمام الرحمة ألا تجعل اللسان شرطًا للوصول الحق. فبعض الناس تؤلمهم الحاجة، ثم يؤلمهم السؤال أكثر؛ وعلى المجتمع المؤمن أن يبصرهم قبل أن يضطرهم العوز إلى كشف ما سترته العفة.

ويأكل صاحب الهدى كذلك، ليتحقق التوازن الذي يتكرر في السورة: انتفاع بلا أنانية، وبذل بلا رهبانية. لا يحرم نفسه من طيبات الله، ولا ينسى الآخرين وهو يأكلها.

القوة المسخرة

ثم قال سبحانه:

(كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

البُدن أقوى من الإنسان في تكوينها الجسدي، ومع ذلك يقودها ويسوقها وينتفع بها. فما الذي جعل هذه القوة الضخمة منقاداً له؟ إنه التسخير الإلهي.

والتسخير من النعم التي يكثر احتياجها بسبب الاعتياد. يظن الإنسان أن سيطرته على الحيوان أمر بديهي، كما يظن أن جريان الماء، وإنبات الأرض، واستجابة المادة لعقله أمور طبيعية مكتفية بنفسها. لكن القرآن يعيد الأشياء إلى يد المنعم: (سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ).

ليس ذكاؤك وحده الذي منحك هذه القدرة؛ فالذي خلق عقلك خلق الحيوان قابلاً للتسخير، وخلق بينكما نظاماً يسمح بالانتفاع. ولو سلب الله هذا الانقياد، لما استطاع ضعف جسدك أن يقهر كل ما هو أشد منك.

لكن غاية التسخير ليست الغرور، بل الشكر:

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

الشكر أن ترى المنعم وراء النعمة، وأن تستعمل ما سخره لك فيما يرضيه، وألا يحولك تمكينك في بعض المخلوقات إلى مستبد بها. فالذي سخرها لك قادر على أن يسلبك القوة التي تتحكم بها، وأنت وإياها عبدان في ملكه.

الفصل السابع والعشرون

ما الذي يصعد إلى الله؟

ثم تأتي الآية التي تنفذ من ظاهر النسك إلى سره:

(لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ).

هذه الآية ميزان لكل عبادة، ونجاة من مرض الشكل حين ينفصل عن الروح. فاللحوم والدماء لا تصعد إلى الله، والله سبحانه غني منزله عن حاجات المخلوقين. لا يتغذى بالقرايين، ولا تزيد الذبائح في ملكه شيئاً، ولا تعود إليه مادة النسك.

إن الذي يريده منكم هو التقوى.

تنزيه العقيدة وتطهير العبادة

واجه القرآن تصورات جاهلية قديمة كانت ترى في الدم المسفوح قرباناً مادياً يصل إلى المعبود، أو تلطخ به الأنصاب تعظيماً لها. فجاء التوحيد لينزه الله عن الحاجة، ويطهر العبادة من الخرافة:

(لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا).

في النفي بـ(لَنْ) حسم لكل وهم؛ لا في الحاضر ولا في المستقبل يصل إلى الله شيء من هذه المواد على معنى الانتفاع والحاجة. فهو الذي خلقها ورزقها وسخرها، فكيف يحتاج إلى ما هو ملكه؟

سُورَةُ الْحَجِّ

لكن النفي لا يلغي الشعيرة، بل يصحح معناها. لم يقل: ما دامت اللحوم والدماء لا تناله فاتركوا الذبح؛ بل أمر بالهدي، ثم بيّن مقصده. وهذا يرد على انحرافين متقابلين: انحراف من يكتفي بالشكل ويُميت الروح، وانحراف من يهدم الشكل بحجة طلب الروح.

القرآن يحفظ الشعيرة ويحيي معناها معًا.

ولكن يناله التقوى منكم

نسبت الآية نيل التقوى إلى الله على وجه القبول والرضا؛ وإلا فالله لا يناله شيء كما ينال المخلوق. المعنى أن الذي يصعد إليه ويقبله ويثيب عليه هو إخلاصكم وخشيتكم وانقيادكم.

وقال: **(مِنْكُمْ)**، لا من الذبائح. موضع الامتحان في الإنسان لا في الحيوان؛ فما حال قلبك وأنت تبذل؟ أطلبت وجه الله أم أعين الناس؟ أذكرت المنعم أم افتخرت بكثرة ما قدمت؟ أطعمت المحتاج أم جعلت الشعيرة منصة لعرض ثرائك؟

قد تتشابه الذبيحتان في الحجم والصورة، وبينهما عند الله ما بين قلب مخلص وقلب مرءٍ. والله لا ينظر إلى كثرة المشهد وحدها، بل إلى الحقيقة التي أنشأته.

سُورَةُ الْحَجِّ

وهذا يمتد إلى كل عبادة: لا ينال الله جوع الصائم مجردًا، وإنما تقواه؛ ولا تناله حركة المصلي بلا قلب، وإنما صدقه وخضوعه؛ ولا يناله تعب الحاج لذاته، وإنما إخلاصه واستسلامه؛ ولا تناله كلمات الداعية العالية إن خلت من طلب وجهه.

لكن ينبغي ألا تفهم التقوى شعورًا باطنياً يغني عن صحة العمل؛ إذ إن صدق الباطن هو الذي يدفع إلى أداء الظاهر كما شرعه الله. التقوى لا تلغي الحركة، بل تمنحها الحياة.

من الهداية إلى التكبير

قال سبحانه:

(كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ).

تكرر ذكر التسخير، لكن الغاية هنا ارتفعت من الشكر إلى التكبير. أن تقول: الله أكبر، ليس مجرد لفظ يملأ الفضاء، بل حكم على الوجود كله: الله أكبر من المال الذي بذلت، وأكبر من الذبيحة التي عظمت في عينك، وأكبر من نفسك التي قد تعجب بالعمل، وأكبر من كل وثن ظاهر أو خفي.

والتكبير (عَلَى مَا هَدَاكُمْ)؛ أي بسبب هدايته إياكم وإرشادكم إلى نسلك التوحيد. فالهداية نعمة تستحق التكبير؛ لأنها أنقذت الإنسان من أن يريق الدم لغير الله، أو يتقرب بالخرافة، أو يهيم بلا قبلة.

سُورَةُ الْحَجِّ

وما أعظم أن يشعر المؤمن بأن معرفته كيف يعبد الله نعمة من الله! ليس الفضل له لأنه اهتدى بذكائه وحده، بل لله الذي أرسل الرسول، وأنزل الكتاب، وفتح القلب للفهم، وثبته على الطريق.

لذلك لا يصنع التكبير متكبراً، بل يهدم الكبر؛ لأن من عرف أن هدايته فضل قال: الله أكبر، ولم يقل في باطنه: أنا أكبر ممن ضل.

وبشر المحسنين

ختمت الآية بقوله:

(وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ).

سبق أن بشرت السورة المخبئين، وهنا تبشر المحسنين. فالإخبات حالة القلب المتواضع، والإحسان بلوغ العبادة والعمل درجة الجودة والمراقبة والنفع.

المحسن لا يؤدي الواجب كمن يتخلص من عبء، بل كمن يتقرب إلى محبوب. يحسن نيته، ويحسن نسكه، ويحسن إلى الحيوان فلا يعذبه، ويحسن توزيع اللحم فلا يذل فقيراً، ويحسن إلى الناس لأن الله يحب المحسنين.

والبشارة تناسبهم؛ لأنهم أدخلوا الجمال إلى أعمالهم، فيبشرهم الله بالجمال الكامل الذي أعده لهم.

إن الله يدافع: الحماية التي لا تراها العيون دائماً

بعد حديث الشعائر والذبائح والتقوى، تنتقل السورة إلى ساحة الصراع:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ).

وقد يبدو الانتقال لأول وهلة بعيداً: من الهدى عند البيت إلى الدفاع عن المؤمنين. لكنه في الحقيقة انتقال داخل نسيج واحد؛ فالذين يعظمون شعائر الله يحتاجون إلى من يحمي حقهم في عبادته حين يعتدي عليهم الطغاة، والبيت الذي جُعل للناس قد يتعرض للصد، والتوحيد الذي يحرر الضمائر يثير مقاومة الذين بنوا سلطانهم على استعبادها.

فلا تكفي الشعيرة إذا تُركت بلا حماية أمام من يريد اقتلاعها، ولا يكون الدفاع الحق منفصلاً عن التقوى التي تمنعه من التحول إلى عدوان.

الله هو المدافع

بدأت الآية بالتوكيد:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ).

إنها جملة تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن المستضعف. قد يرى حوله قوى متكاثرة، ويحسب بالمقاييس الظاهرة أن لا توازن بينه وبين خصومه؛ فتأتي الآية لتضيف إلى الحساب حقيقة لا يراها ميزان المادة: الله يدافع.

سُورَةُ الْحَجِّ

والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار. فدفاع الله ليس حادثة واحدة انتهت، بل رعاية متصلة تتخذ صورًا كثيرة. قد يدفع العدو، وقد يرد كيده في نحره، وقد يحفظ قلب المؤمن من الانكسار، وقد يجعل أذاه سببًا لانتشار الحق، وقد يؤخر النصر حتى تنضج النفوس وتتميز الصفوف.

ليس الدفاع دائمًا أن يعفي الله المؤمن من الألم، بل قد يكون أن يمنع الألم من هزيمة روحه. قد يُجرح الجسد ويظل المبدأ سليمًا، وقد يضيق المكان وتوسع الرسالة، وقد يموت صاحب الحق وتبدأ حياته الكبرى في الضمائر.

نحن نرى طرفًا من المعركة، والله يرى مآلاتها كلها.

عن الذين آمنوا

ربطت الآية الدفاع بالإيمان:

(عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا).

ليس هذا وعدًا لكل من رفع اسمًا إسلاميًا وهو يهدم معانيه، ولا إعفاءً من إعداد القوة والأخذ بالأسباب. إنما هو وعد لمن حققوا حقيقة الإيمان، وساروا في مقتضاه، واستنصروا بالله وهم يبذلون ما يستطيعون.

والإيمان نفسه أول مواضع الدفاع الإلهي؛ يحمي الله به النفس من الاستسلام للباطل، ويمنعها معيارًا لا تشتريه الدعاية، وكرامة لا يمنحها الطاغية ولا يسلبها.

سُورَةُ الْحَجِّ

وكم من إنسان حُفِظَ ماله وخسر قلبه، وكم من مؤمن فقد بعض دنياه وحفظ الله له دينه، فكان المحفوظ في الحقيقة أعظم مما تُفقد.

خَوَانُ كُفُورٍ

ثم كشفت الآية الجهة المقابلة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كُفُورٍ).

الخَوَّانُ صيغة مبالغة في الخيانة؛ فهو لا يقع في خيانة عابرة فحسب، بل تتكرر منه حتى تصير وصفًا راسخًا. والكفور شديد الجحود لنعم الله.

وجمع الوصفان لأن الخيانة والكفران يجتمعان في نفس تستعمل نعم الله في حرب هدايته. أعطاه العقل فمكرت به، وأعطاه القوة فظلمت، وأعطاه المال فصدت عن سبيله، وأعطاه الأمن فحرمته من غيرها.

وما أقبح أن يحارب الإنسان المنعم بنعمته!

وقوله: (لَا يُحِبُّ) أعظم من مجرد الإخبار بالعقوبة؛ فالخسارة الكبرى أن يسقط العبد من محبة الله. قد يحبه أتباعه، ويصفق له المنتفعون، ويهاب سلطانَه الضعفاء، لكنه إذا فقد محبة الله فقد أصل الكرامة كلها.

الإذن الأول: حين صار الصبر قوة تحمي الحق

ثم جاء التحول التاريخي العظيم:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ).

إنها من أوائل الآيات التي أذنت للمؤمنين بالقتال بعد مرحلة طويلة من الصبر على الأذى. ولم يبدأ التعبير بصيغة الهجوم، بل بصيغة الإذن للذين وقع عليهم القتال والظلم.

قال: (أُذِنَ)، فكان القوة كانت ممسكة بقيد الشرع حتى جاء وقت إطلاقها. المؤمن لا يقاتل لأن غضبه وحده أمره، ولا لأن القوة صارت في يده، بل لأنه تلقى الإذن من الله ضمن حدود ومقاصد.

وهنا يظهر الفارق بين الجهاد والاندفاع الانتقامي. الجهاد عبادة محكومة بالوحي، أما الانتقام المنفلة فعبودية للغضب.

للذين يقاتلون

جاء الفعل بصيغة المبني للمجهول:

(لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ).

فهم الذين بُدئوا بالعدوان، ووجّه القتال إليهم، ولم يخرجوا يبحثون عن الدم. ثم صرحت الآية بعلة الإذن:

(بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا).

الظلم هنا ليس دعوى غامضة، بل واقع فسرته الآية التالية: أخرجوا من ديارهم بغير حق، لمجرد قولهم ربنا الله.

إن القوة في الرؤية القرآنية لا تكتسب شرعيتها من القدرة على استعمالها، بل من الحق الذي تحميه والحدود التي تضبطها. فمن ملك السلاح لا يصبح محققاً لمجرد أنه غالب؛ وإلا صار كل طاغية مشرعاً لنفسه.

وإن الله على نصرهم لقدير

قد يسأل القلب: إذا كان الله يدافع عن الذين آمنوا، فلماذا أذن لهم بالقتال؟ والجواب أن دفاع الله يجري بأسباب يكلفهم بها. يستطيع أن ينصرهم من غير حركة منهم، لكنه يريد أن يريهم على حمل الأمانة، وأن يظهر صدقهم، وأن يقيم بهم العدل.

الأخذ بالسبب ليس نقصاً في التوكل، بل جزء منه حين يأمر الله بالسبب. الذي يدعو الله بالنصر ثم يترك ما أوجبه عليه من إعداد لا يكون قد توكل، بل عطل سنن الله باسم التوكل.

ومع ذلك جاءت الجملة:

(وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ).

سُورَةُ الْحَجِّ

تتابعت أدوات التوكيد: إِنَّ، واللام، وقدرة الله المصرح بها؛ حتى لا يظن المؤمن أن النصر ثمرة قوته وحدها. هو مأمور أن يقاتل، لكنه لا يصنع النتيجة مستقلاً. يحمل السلاح بيده، ويحمل الافتقار في قلبه.

إن أخطر ما يصيب المظلوم حين يملك القوة أن ينسى من نصره، فيتشبه بمن ظلمه. لذلك تربطه الآية منذ لحظة الإذن بالقدرة الإلهية؛ لكي يبقى عبداً لله وهو منتصر، كما كان عبداً له وهو مستضعف.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثلاثون

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا اللَّهُ

قال سبحانه:

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ).

هذه العبارة تختصر مأساة الاضطهاد الديني في كل زمان: إنسان يُقتل من بيته، ويُسلب أمنه، ويُحرم وطنه، لا لجرم ارتكبه، بل لعقيدة حملها.

قال: (أُخْرِجُوا)، ولم يقل: خرجوا. فالمغادرة لم تكن رحلة مختارة، بل اقتلاعاً قسرياً. والديار ليست جدراناً فحسب؛ إنها ذاكرة الإنسان، وموضع طفولته، وصلاته، ورزقه، وقبور أحابيه. وإخراجه منها عدوان على طبقات من وجوده.

ثم قال: (بِغَيْرِ حَقٍّ)، فنفي أي مسوغ مشروع لهذا الإخراج. وبعد النفي جاء الاستثناء الذي يكشف بشاعة الجريمة:

(إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ).

وهو استثناء تهكمي بمعنى: لم يكن لهم ذنب إلا هذه الكلمة التي ليست ذنباً، بل أشرف الحقائق. كأن الطغيان قلب الموازين حتى صارت معرفة الرب جريمة، وصار التوحيد تهمة، وصار إخلاص العبادة مبرراً للطرد.

لماذا يخاف الطغاة من: ربنا الله؟

تبدو الكلمة في ظاهرها عقيدة قلبية، فلماذا تثير سلطان الطغيان؟

لأن من قال: (رَبَّنَا اللَّهُ) بصدق، فقد نفى الربوبية المطلقة عمن سواه. لا يعود الحاكم ربًّا يشرع من هواه، ولا الجماعة ربًّا تبتلع ضمير الفرد، ولا السوق ربًّا يحدد قيمة الإنسان، ولا الكاهن ربًّا يحتكر طريقه إلى الله.

التوحيد يحرر الضمير من الخضوع المطلق للمخلوق، ولهذا تكرهه كل سلطة تريد من الناس عبودية لا مواطنة، وتصفيقًا لا محاسبة، وتسليمًا لها لا لله.

لم يكن الصراع على لفظ مجرد، بل على ما يترتب عليه من كرامة وحرية أخلاقية. من عرف أن ربه الله، استطاع أن يقول للطاغية: أنت عبد مثلي، ولك حدود لا يجوز أن تتجاوزها.

الدفاع عن حرية العبادة

ثم تكشف الآية مقصدًا عظيمًا من مقاصد دفع العدوان:

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا).

إن ترك القوة المعتدية بلا مقاومة لا يصنع سلامًا؛ بل يترك العالم فريسة للأقوى. ولولا أن الله يدفع بالمؤمنين عدوان المعتدين، لهدمت أماكن العبادة، وانطفتت أصوات الذكر تحت ركام الاستبداد.

سُورَةُ الْحَجِّ

وابتدأت الآية بالصوامع، ثم البيع، ثم الصلوات، ثم المساجد؛ فذكرت مواضع عبادة معروفة لأتباع رسالات مختلفة، لتبين أن دفع الطغيان يحفظ أصل حرية عبادة الله، وأن مهمة القوة العادلة لا تنحصر في حماية مصالح المنتصرين وحدهم.

إن الجهاد الذي تعرضه السورة ليس مشروع إكراه للناس على الإيمان؛ فالإيمان لا يدخل القلب بالسيف. إنه دفاع عن المجال الذي يستطيع فيه الإنسان أن يعبد الله دون أن يهدم الطاغية محرابه فوق رأسه.

لهدمت: صورة الخراب لو غاب الدفع

دخلت اللام على جواب (لولا):

(لَهُدِّمَتْ).

كأن الهدم نتيجة مؤكدة إذا ترك العدوان دون دفع. فالشر إذا لم يجد من يردّه لا يقف غالباً عند أول حد؛ يبدأ بطرد أفراد، ثم بمنع كلمة، ثم بإغلاق مسجد، ثم بهدم كل معلم يذكر الناس بسلطان أعلى من سلطان الطاغية.

ولهذا لا يكون مقاومة الظلم شرّاً مساوياً للظلم؛ فالخلط بين المعتدي والمدافع إلغاء للعدل. نعم، يجب أن يظل الدفاع منضبطاً بأخلاق الوحي، لكن منعه مطلقاً يعني تسليم الضعيف إلى يد القوي.

سُورَةُ الْحَجِّ

يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا

هذه هي علة شرف تلك البيوت:

(يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا).

ليست قيمتها في الحجارة، بل في الذكر الذي تسكنه. إنها فضاءات تحرر الإنسان من صخب الدنيا، وتعيده إلى عبوديته، وتعلن أن فوق سلطان الأرض سلطان السماء.

والمستبد يضيق غالبًا بالمكان الذي يتذكر فيه الناس أن له ربًّا؛ لأن ذكر الله يهدم السحر الذي تصنعه القوة حول نفسها.

بعد أن بينت السورة سنة الدفع، جاء الوعد:

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).

من أبلغ ما في الآية أن الله نسب النصر إلى عباده فقال: (مَنْ يَنْصُرُهُ)، مع أنه القوي الذي لا يحتاج إلى ناصر. ومعنى نصر الله: نصر دينه، وإقامة أمره، والدفاع عن عباده وشرعه.

إنها إضافة تشريف، كأن الله يرفع عمل العبد المحدود فينسبه إلى جنابه: أنت تدافع عن حقه، وتنصر مظلوماً ابتغاء وجهه، وتقيم عدله، فيسمى ذلك نصراً له؛ ثم يعدك أن يقابل نصرك المحدود بنصره الذي لا تحده قوة.

وجاءت اللام ونون التوكيد الثقيلة:

(وَلَيَنْصُرَنَّ).

وعد ثابت، لكن ينبغي ألا نحصره في الصورة التي نرسمها أو الوقت الذي نحدده. قد يتحقق النصر بفتح الأرض، وقد يكون بحفظ الدين، أو إبطال كيد، أو إقامة حجة، أو حسن خاتمة، ثم يكتمل في الآخرة حيث لا يبقى للباطل سلطان.

إن الله لقوي عزيز

ختم الوعد باسمين يناسبان المقام:

(لَقَوِيَّ عَزِيزٌ).

قوي فلا يعجز عن إنجاز وعده، عزيز لا يُغلب ولا يُقهر. والأسباب كلها لا تخرج عن سلطانه؛ ما يبدو منها قوياً فبقوة منحها، وما يبدو عزيزاً فعزته مؤقتة مستعارة.

لكن المؤمن حين ينصره القوي العزيز لا يتحول إلى متكبر؛ لأنه يعرف أن القوة ليست منه. كل انتصار يدفعه إلى السجود، لا إلى تأليه الذات. فإذا نسب النصر إلى عبقريته وحدها، بدأ يفقد المعنى الذي استحق به النصر.

من هم الذين ينصرهم الله؟

تجيب الآية التالية:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

هذه ليست صفات مؤمنين في حال ضعفهم فقط، بل امتحانهم بعد التمكن. فكثيرون يحسنون خطاب المظلومية حين يُحرمون القوة، لكن حقيقتهم تظهر حين تصبح القوة في أيديهم.

والقرآن لا يكتفي بأن يسأل: ماذا قالوا وهم مضطهدون؟ بل يسأل: ماذا فعلوا حين صار القرار لهم؟

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثاني والثلاثون

التمكين الذي يسجد ولا يطغى

قال سبحانه:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ).

لم يقل: إِنْ تَمَكَّنُوا، بل: (مَكَّنَّاهُمْ). فالتمكين من الله، وإن جرى عبر جهد وتخطيط وتضحية. وهذه النسبة تحمي النفس من سُكر السلطة؛ فالأرض التي وقف عليها المنتصر كانت لله قبل أن يأتي، والقوة التي استعملها من عطائه، والقلوب التي التفت حوله من تدبيره.

التمكين ليس شهادة عصمة، ولا إذنًا بالاستعلاء، بل انتقال إلى امتحان أشد. كان الإنسان في الضعف ممتحنًا بالصبر، فإذا قوي صار ممتحنًا بالعدل. وقد ينجح في الأول ويفشل في الثاني؛ لأن ألم المظلوم لا يضمن وحده ألا يصير ظالمًا إذا امتلك أدوات خصمه.

أقاموا الصلاة

أول علامة للتمكين الراشد:

(أَقَامُوا الصَّلَاةَ).

قبل بناء الجيوش واتساع الأموال، تقيم الجماعة صلواتها بالله. وليس المعنى أن الدولة تنشغل بالشعيرة عن مصالح الناس، بل أن مركزها الأخلاقي يبقى

سُورَةُ الْحَجِّ

خاضعًا لله. الصلاة تذكّر صاحب السلطة خمس مرات أنه عبد، وأن جبهته التي ترفعها المناصب ينبغي أن توضع على الأرض لرب العالمين.

ومن لا يسجد لله قد يطلب من الناس أن يسجدوا له بمعنى من المعاني؛ فإن لم يطلب سجود الأجساد، طلب خضوع الضمائر، وحرّم نقده، وجعل إرادته فوق الحق.

الصلاة حماية للسلطة من التأله إذا أقيمت بمعناها، لا إذا تحولت إلى مظهر يزين الظلم.

وآتوا الزكاة

ثم:

(وَأَتُوا الزَّكَاةَ).

التمكين ليس امتيازًا للأقوياء، بل مسؤولية تجاه الفقراء. والزكاة تنقل أثر الإيمان من المحراب إلى الاقتصاد، ومن خشوع الفرد إلى عدالة المجتمع.

إن الجماعة التي تقيم الصلاة وتترك الضعفاء فريسة للجوع لم تستوفِ صورة التمكين القرآني. الله الذي له حق السجود هو الذي جعل للفقير حقًا في المال؛ فلا يجوز فصل العبادة عن الاجتماع، ولا التوحيد عن الرحمة.

والزكاة تطهر المال من الشح، وتطهر المجتمع من ترك الضعيف وحيدًا، وتذكر الغني بأن ما في يده ليس حقًا خالصًا لذاته.

وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر

ثم تمتد رسالة التمكين إلى المجال الأخلاقي العام:

(وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ).

المعروف ما عرف الشرع حسنه، والمنكر ما أنكر قبحه. والمجتمع لا يبقى صالحًا بمجرد صلاح أفراد منعزلين؛ إذ للفساد قدرة على الانتشار والتحول إلى عرف وقانون ومؤسسة. لذلك يحتاج الحق إلى من يقيمه بالحكمة والعدل، ويحتاج المنكر إلى من يمنع تمدده بالوسائل المشروعة.

لكن الأمر بالمعروف نفسه يجب أن يكون معروفًا، والنهي عن المنكر لا يجوز أن يتحول إلى منكر. فلا يُصلح الظلم ظلمًا، ولا تُحمى الفضيلة بإهدار الكرامة، ولا يُدعى إلى الله بالهوى والتشفي.

إن صاحب السلطة أشد حاجة إلى أن يبدأ بنفسه؛ لأن أقبح صور الأمر بالمعروف أن يطالب الناس بما يهدمه فعله، وأن ينهاهم عن منكر يصنعه سلطانه.

الغاية الأخلاقية للقوة

تضع الآية أربعة معالم للتمكين: الصلاة، والزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. عبادة، وعدالة اجتماعية، وبناء للخير، ومقاومة للشر.

سُورَةُ الْحَجِّ

وهكذا يتبين أن الجهاد لم يُشرع لكي تنتقل الأرض من يد متكبر إلى يد متكبر آخر، بل لكي يتحرر الناس من الطغيان، وتقام صلة بالله، ويصل الحق إلى المحتاج، ويُصان المجتمع من الفساد.

القوة في الإسلام ليست غاية تعطي حاملها قيمة، بل أداة تمتحن قيمته. إن أقام بها الحق صارت نعمة، وإن خدم بها شهوته صارت حجة عليه.

ولله عاقبة الأمور

ختمت الآية بقوله:

(وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

قدّم الجار والمجرور: (وَلِلَّهِ)، للاختصاص؛ فالنهايات كلها إليه وحده. البشر يبدؤون المشاريع، ويتنازعون المواقع، ويرسمون المستقبل، لكن العاقبة ليست ملكاً لهم.

هذه الجملة تمنع المؤمن من اليأس إذا رأى أول الطريق صعباً، ومن الغرور إذا رأى بعض النجاح. فالبداية لا تكشف دائماً النهاية؛ كم من باطل انتفخ حتى ظن الناس أنه باق، ثم خرج من التاريخ كما تخرج الفقاعة من الماء، وكم من حق بدأ همساً مطاردًا ثم صار ضمير أمة.

ولله عاقبة الأمور: فلا تجعل اللقطة العاجلة حكماً على القصة كلها، ولا تجعل جولة معياراً للمصير. اعمل بما أمرك الله، وأقم الحق حين يمكنك، ثم سلّم النهايات لمن يملكها.

سُورَةُ الْحَجِّ

وهنا يتصل التمكين بالحج اتصالاً عميقاً: فالحاج يتعلم أن المركز لله، والمجاهد يتعلم أن القوة لله، والحاكم المؤمن يتعلم أن العاقبة لله. وفي كل مقام تتكرر الحقيقة ذاتها بثوب جديد: لست المالك، بل العبد المؤمن.

إن يكذبوك: مأساة الداعية بتاريخ النبوات

بعد أن بينت السورة سنة الدفاع والتمكين، التفتت إلى الرسول ﷺ تسلياً عن تكذيب قومه:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَتَمُودُ ۖ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۚ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ).

يأتي الشرط: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ)، كأن تكذبيهم، على قسوته، احتمال معروف في طريق الرسالة، لا حادثة تهدم أصل الدعوة. ثم تأتي الفاء مسرعةً بالجواب:

(فَقَدْ كَذَّبْتَ قَبْلَهُمْ).

أنت لست أول رسول يستقبل الناس نوره بالإنكار، ولا أول حامل حق يؤذيه أن يرى الواضح مردوداً. إنك حلقة في موكب طويل، وإن خصومك يعيدون موقفاً قديماً وإن تغيرت وجوههم.

والتسليية هنا ليست تخفيفاً عاطفياً مجرداً، بل إعادة تفسير لما يحدث. فقد يظن الداعية أن تكذيبه دليل قصور في رسالته أو ضعف في بيانه، فتخبره قصص الأنبياء أن البيان الكامل لا يلغي حرية الإنسان في العناد، وأن الحق قد يكون ظاهراً ثم يرفضه من يخشى تكاليفه.

ليس كل من لم يقتنع قد افتقد الدليل؛ فقد يكون قد افتقد التجرد الذي يجعله ينتفع بالدليل.

تاريخ يختصره إيقاع الأسماء

توالت الأمم:

(قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ○ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ○ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ).

أسماء قصيرة، لكن وراء كل اسم قرون من الدعوة والعناد والصبر والعاقبة. لم تفصل السورة القصص؛ لأنها لا تقصد هنا سرد وقائعها، بل تريد أن تسمع القلب إيقاع التاريخ كله وهو يردد سنة واحدة: رسول يدعو، وقوم يكذبون، والله يمهل، ثم يفصل.

وفي هذا الإجمال قوة؛ إذ تمر الحضارات أمام العين كأنها مشاهد متتابعة، ثم تنتهي جميعاً إلى المصير نفسه. أين صخب عاد؟ وأين نحت ثمود؟ وأين أسواق مدين؟ بقيت العبرة، وذهب الذين ظنوا أنهم آخر كلمة في الأرض.

إن الطغيان يعيش داخل لحظته، ولذلك يتوهم الخلود. أما القرآن فيضعه داخل الزمن الطويل، فيبدو قصير العمر مهما امتد سلطانه.

وَكُذِّبَ مُوسَى

قال تعالى: (وَكُذِّبَ مُوسَى).

ولم يقل: وقوم موسى؛ لأن المكذبين لم يكونوا قومه المؤمنين به، وإنما فرعون وملؤه، فبني الفعل للمجهول وأسند التكذيب إلى موسى مباشرة. وفي تغيير الأسلوب دقة تحفظ حقيقة القصة ولا تكسر إيقاع السرد.

وهذا من لطائف النظم القرآني: قد تتشابه السنن، لكن العبارة لا تسوي بين التفاصيل تسوية تمحو الفروق. البيان الموجز يظل أميناً للتاريخ، ويضع كل كلمة في موضعها.

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ

قال سبحانه:

(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ).

الإملاء هو الإمهال وإطالة المدة. كان يمكن أن يأخذهم الله عند أول تكذيب، لكنه أمهلهم؛ لعلهم يرجعون، ولتقوم الحجة، وتظهر الأعمال، ويتميز المصر من التائب.

لكن الإنسان قد يسيء فهم الإمهال. يرى أبواب الدنيا مفتوحة، وجسده معاقى، وسلطانه ممتدًا، فيظن أن سكوته عن الحق بلا ثمن، وأن الله غافل عنه، أو أن باطله قد صار مقبولاً لطول بقائه.

سُورَةُ الْحَجِّ

والحقيقة أن المهلة ليست دائماً سلامة، كما أن سرعة العقوبة ليست الصورة الوحيدة للعدل. قد يكون الزمن الذي يفرح به الظالم مساحة تتراكم فيها الحجة عليه، وكل يوم لا يتوب فيه يزيد حمله.

ومع ذلك فإن باب الرجوع يبقى مفتوحاً ما دامت المهلة؛ وهذا من رحمة الله. فالزمن الذي يزيد إثم المصّر هو نفسه فرصة نجاة للتائب. والفرق تصنعه حركة القلب.

ثم أخذتهم

قال تعالى:

(ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ).

جاءت (ثُمَّ) بعد الإملاء لتشعر بطول المهلة، ثم جاء فعل الأخذ قصيراً حاسماً. طال الزمن في وهمهم، لكن النهاية حين جاءت لم تحتج إلا أمراً واحداً.

والأخذ يوحى بالقوة والإحاطة؛ فلا يفلت المأخوذ، ولا يجد جهة يخرج منها. كانوا يتصرفون في الأرض كأنها ملكهم، فإذا هم داخل قبضة القدرة التي أنكروها.

ثم جاء السؤال: (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ).

سُورَةُ الْحَجِّ

أي كيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة وتغييري لما كانوا فيه؟ والسؤال ليس طلبًا لجواب يجهله السامع، بل استحضار لهول العقوبة. انظروا إلى ديارهم، وإلى القوة التي صارت خبزًا، ثم أجيئوا بقلوبكم.

إن نكير الله لا يشبه اعتراض إنسان ضعيف يرفض الباطل ولا يملك تغييره؛ إذا أنكر الله على قوم أخذهم أخذًا يناسب حكمته وعدله، فتحوّلت حضارتهم المتجبرة إلى شاهد على عجزها.

قرى خاوية وآبار معطلة وقصور مشيدة

بعد أن ذكرت السورة الأمم المكذبة مجملة، فتحت أمامنا مشهد الخراب الذي خلفته:

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبْنُ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ).

(فَكَأَيِّنْ) تفيد التكرير: فكم من قرية تكرر فيها المصير! ليست سنة الله حادثة نادرة لا يقاس عليها، بل جرى بها التاريخ مراراً، كلما استكملت أمة أسباب الهلاك.

لكن السورة لم تقل: أهلكناها فحسب، بل قيدت ذلك بالعدل:
(وَهِيَ ظَالِمَةٌ).

لم يكن الخراب نزوة في القدر، ولا عقوبة بلا جرم. إن الله لا يهلك القرى لصغرها ولا لفقرها، ولا يبقئها لمجرد قوتها وغناها؛ المعيار أخلاقي: الظلم حين يستحكم، وتقوم الحجة، وتغلق الأمة أبواب الرجوع.

خاوية على عروشها

القرية (خَاوِيَةٌ)، خالية من أهلها، ساقطة على سقفها أو خاوية وقد تهدمت عروشها. والصورة تقلب البناء على نفسه؛ السقف الذي كان يحمي السكان سقط، ثم تهاوت الجدران فوقه.

سُورَةُ الْحَجِّ

إن العمران الذي لم تحمله القيم ينهار مهما ارتفع. فالحضارة ليست حجارة قائمة فحسب؛ قد تبقى الأبنية زمنًا بينما تكون الروح التي أقامتها قد ماتت، ثم يأتي الانهيار المادي متأخرًا ليكشف انهيارًا أخلاقيًا سبقه.

وما أكثر ما يغتر الناس بالعمران! يرون شاهق البناء فيحسبونه دليلًا على صحة الطريق، وكأن القدرة على تشييد السقف تعني القدرة على حماية المصير. لكن عاذًا وثمود وغيرهما امتلكوا من أسباب المادية ما بهر زمانهم، ولم يمنعهم ذلك من السقوط حين صار العمران غطاءً للظلم.

وبئر معطلة

ثم تنتقل العين من القرية إلى البئر:

(وَبُئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ).

البئر عنوان الحياة في الأرض القاحلة؛ حولها تقام البيوت، وإليها تساق الأنعام، وعندها يلتقي المسافرون. لكنها هنا معطلة: ماء موجود أو موضع صالح للماء، ولا يد تمتد إليه، ولا دلو يهبط، ولا عطشان ينتفع.

إنها صورة موجعة لنعمة بقيت وفقدت من ينتفع بها. وقد يكون العذاب أحيانًا ألا تزول الأشياء، بل يبقى بعضها شاهدًا على زوال أصحابها. البئر في مكانها، لكن الضجيج الذي كان حولها انطفأ.

والمعطل ليس الفاقد للقيمة في ذاته، بل المتروك الذي توقف دوره. وهكذا قد يملك مجتمع موارد واسعة ثم يعطلها الظلم والفساد، فيجوع الناس وبجوارهم أسباب الغنى، ويعطشون وفي أرضهم الماء، لأن فساد الإنسان أفسد صلته بالنعمة.

وقصر مشيد

وفي الطرف الآخر:

(وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ).

القصر مرتفع محكم مطلي أو مرفوع البنيان. يقف في الصورة مقابل البئر المعطلة: مورد للحياة تُرك، ورمز للترف والسلطان بقي شامخًا بلا أهل.

يا لها من مفارقة! القصر الذي بُني ليعلن القوة صار إعلانًا عن الفناء. كل حجر فيه يقول: كان هنا من ظن أن الجدران العالية تمنع عنه القدر، ثم مضى وبقي الجدار.

والقرآن لا يذم البناء الجميل أو القوي في ذاته، لكنه يهدم الوهم الذي يجعل التشييد ضمانًا للخلود. قد يشيد الإنسان قصره وينسى بناء ضميره، ويحكم أبوابه ويترك منافذ الظلم مفتوحة، ثم يكتشف أن الخطر لم يكن آتيًا من خارج الأسوار، بل كان ينمو في أخلاق المجتمع.

آثار ينبغي أن تُقرأ

جمعت الآية القرية والبئر والقصر: مجتمعًا، وموردًا اقتصاديًا، ومظهرًا للقوة. انهارت البنية البشرية، وتعطل المورد، وعجز رمز السلطة. وكأن الخراب شمل مستويات الحضارة كلها.

لكن هذه الآثار لا تتكلم إلا لمن يحمل قلبًا يسمع. قد يمر السائح بالأنقاض، يلتقط صورًا، ويعجب بفن البناء، ثم يعود دون أن تسقط في نفسه لبنة واحدة من الغرور.

لهذا تنقلنا السورة من رؤية العين إلى فقه القلب.

قال سبحانه:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

السير في الأرض هنا ليس انتقال أقدام فقط، بل منهج معرفة. يخرج الإنسان من سجنه الزمني والمكاني، ويرى مصائر من كانوا قبله، فيتخلص غروره، ويدرك أنه حلقة عابرة في تاريخ طويل.

وقد جمعت الآية بين السير الخارجي والتكوين الداخلي:

(فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا).

كان القلب قد يكون موجوداً من جهة الخِلقَة، لكنه غير موجود من جهة الوظيفة. تنبض العضلة، وتستمر الحياة الجسدية، لكن أداة البصيرة معطلة. ولهذا قالت: (قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)، أي قلوب تؤدي مهمتها في الفهم والاعتبار.

العقل القرآني قلب حي

نسبت الآية العقل إلى القلوب؛ لأن المعرفة القرآنية ليست عملية ذهنية باردة منفصلة عن الإرادة والأخلاق. قد يدرك الذهن مقدمات الحقيقة، ثم يمنع الكبر القلب من التسليم بها. فموضع العطب ليس دائماً نقص المعلومات، بل فساد الاتجاه الداخلي الذي تُستقبل به المعلومات.

سُورَةُ الْحَجِّ

إن القلب في الاستعمال القرآني مركز الوعي والإرادة والشعور. فإذا صلح، انتفع العقل بالدليل؛ وإذا مرض، تحول الذكاء نفسه إلى أداة لتبرير الهوى.

ولهذا قد يكون الإنسان واسع المعرفة، سريع الاستدلال، لكنه لا يعتبر بمصائر الأمم؛ لأنه يستخدم عقله ليهرب من الحقيقة لا ليصل إليها. ليس كل نشاط ذهني عقلاً راشداً، كما ليست كل عين مفتوحة مبصرة للمعنى.

أو آذان يسمعون بها

العبرة لا تأتي من المشاهدة وحدها؛ فقد تصل الحقيقة عن طريق الخبر الصادق:

(أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا).

لكن السماع المقصود ليس وصول الصوت إلى الأذن، بل إصغاء يستقبل المعنى. كم من إنسان سمع القرآن سنوات، ولم يسمع النداء الموجه إليه! تمر الكلمات عبر أذنه إلى ذاكرته، لكنها لا تصل إلى موضع القرار.

وقدّم القلب على الأذن؛ لأن الأذن باب، أما القلب فموضع الفهم. وإذا أغلق الداخل، لم يغني افتتاح الباب.

القلوب التي في الصدور

ثم جاءت الجملة التي لا تُنسى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

نفت الآية العمى الحقيقي المؤثر عن الأبصار في هذا المقام، وأثبتته للقلوب. قد تكون العينان سليميتين، تريان الطريق والآثار والوجوه، لكن صاحبهما لا يرى الدلالة، ولا يبصر المصير، ولا يعرف أين يقف من الله.

إن العين ترى القصر الخاوي، والقلب هو الذي يفهم أن القوة لا تضمن البقاء. والعين ترى القبر، والقلب هو الذي يدرك أنه موعد. والعين ترى الحجيح بثياب متشابهة، والقلب هو الذي يرى سقوط الفوارق أمام الله.

ثم قالت: **(الَّتِي فِي الصُّدُورِ)**، مع أن موضع القلب معلوم. وهذه الزيادة تقرر الحقيقة وتنزيل احتمال المجاز البعيد، وتلفت الانتباه بقوة إلى موضع العمى الحقيقي. كأن القرآن يشير إلى الصدر: العطب هنا، لا في العين التي تتهمها.

وقد تحمل العبارة توبيخاً خفياً؛ فهذا القلب قريب منك، في صدرك، ومع ذلك غبت عنه حتى لم تعرف مرضه. يعتني الإنسان بعينيه إذا ضعفتا، ويسرع إلى علاجهما، لكنه قد يعيش طويلاً بقلب أعمى ولا يقلقه ذلك.

كيف يسترد القلب بصره؟

يسترد القلب بصره حين يسير في الأرض بعقل معتبر، ويسمع الوحي بإصغاء صادق، ويتحرر من الكبر الذي يحول بينه وبين الاعتراف، ويطلب من الله النور.

وليس بصر القلب مجرد كثرة التأثر؛ فقد يتأثر الإنسان لحظة ثم يعود إلى غفلته. البصيرة أن يتحول ما رأى وسمع إلى ميزان واختيار: رأيت مصير الظالمين، فلا تظلم. رأيت زوال القصور، فلا تبع آخرتك لبناء عابر. سمعت

سُورَةُ الْحَجِّ

نداء الحج، فاجعل الله مركز قلبك. علمت أن العاقبة له، فلا تزن الحق بكثرة أصحابه في لحظة.

يستعجلونك بالعذاب: غفلة الإنسان عن مقياس الله

بعد الحديث عن آثار المعذبين، تعرض السورة سخرية المكذبين من الوعيد:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ).

كانوا يقولون في معنى التحدي: متى هذا العذاب؟ هات ما تعدنا به إن كنت صادقاً. وهم لا يستعجلونه لأنهم مستعدون له، بل لأن تأخره صار عندهم حجة على عدم وقوعه.

إن الإنسان يظن أن ما لم يقع في الوقت الذي حدده لن يقع أبداً. يقيس وعد الله بعمره القصير، ويطلب من القدر أن يخضع لساعته، فإن تأخر الحكم ظنه قد ألغى.

لكن الله يقول:

(وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ).

قد يتأخر الوعد في حسابك، لكنه لا يتخلف. التأخير شيء، والإخلاف شيء آخر. الحكيم يضع الحدث في وقته، والعاجل يريد الوقت تابعاً لرغبته.

وفي العبارة تثبيت للمؤمن وتهديد للمكذب في آن واحد. المؤمن ينتظر وعد النصر والعدل فلا ييأس، والمكذب يسمع وعد العذاب فلا يغتر بالمهلة.

يوم كألف سنة

قال تعالى:

(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ).

ليس المراد إخضاع الله لزمان يشبه زمان المخلوق، تعالى الله عن ذلك؛ وإنما بيان اختلاف المقاييس، وأن ما تراه البشرية زمناً طويلاً لا يعجز الله ولا يخرج به عن إنفاذ وعده.

قال: (مِّمَّا تَعُدُّونَ)، فرد الألف سنة إلى حساب البشر. أنتم الذين تعدون وتستطيّلون الزمن، أما الله فمحيط بالبدء والنهاية، لا يرهقه الانتظار، ولا تنقص قدرته بمرور العصور.

والإنسان ابن لحظته؛ قد يستطيّل عامًا من الألم حتى يظنه عمرًا، ويرى عقود الطغيان دهرًا لا ينتهي. لكن القرآن يحرره من أسر اللحظة، ويضعه أمام المقياس الإلهي الواسع.

كم من ألف سنة في تاريخ البشر صارت الآن فقرة في كتاب! وكم من طاعية ملأ عصره ضجيجًا، ثم صار اسمًا يحتاج القارئ إلى هامش ليعرفه! الزمن الذي يخيفك يمضي تحت سلطان الله.

الإيمان بالوعد دون تحديد موعد

من الأدب مع الله أن نوقن بوعده دون أن نفرض عليه صورة تحقيقه وموعده. فقد يصدق الإنسان بالوعد، لكنه يربطه بتوقيت من عنده؛ فإذا انقضى التوقيت اضطرب يقينه، مع أن الله لم يعده بذلك الموعد.

الإيمان الناضج يقول: وعد الله حق، وحكمته في الوقت حق. أعمل، وأصبر، وأدعو، ولا أجعل استعجالي ميزاناً لصدق الوعد.

والاستعجال قد يدفع صاحبه إلى وسائل محرمة يظن أنه يعجل بها النصر، فيفسد الغاية باسم خدمتها. أما من عرف أن العقوبة لله، فإنه لا يسرقها بمعصية، ولا يريد إقامة الحق بطريق يهدم معناه.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل السابع والثلاثون
وكم من قرية أُمليت لها

تعيد السورة سنة الإمهال لتؤكددها:

(وَكَايْنِ مِّنْ قَرْيَةٍ أُمْلِئَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ).

في المرة السابقة قالت:

(فَأُمْلِئْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ).

وهنا تحول الحديث من الأشخاص إلى القرى، وكأن الظلم حين يستقر لا يعود فعل أفراد متفرقين، بل يصير بنية عامة تحملها القرية بنظامها ومؤسساتها وسكوتها.

ومرة أخرى جاء القيد:

(وَهِيَ ظَالِمَةٌ).

فالإمهال ليس رضا، والأخذ ليس ظلماً. وبين الإمهال والأخذ مساحة كان يمكن للقرية أن تراجع فيها نفسها، وترد الحقوق، وتوقف فسادها، لكنها أصرت.

وإلى المصير

ختمت الآية بقوله:

(وَإِلَى الْمَصِيرِ).

قُدِّمَ الجار والمجرور لإفادة الاختصاص: إِلَيَّ وحدي ينتهي الجميع. قد تفر القرية الظالمة من حكم في الأرض، وقد تخفي جرائمها، وتكتب تاريخًا ببرئها، وتدفن ضحاياها بلا أسماء؛ لكنها لا تستطيع أن تخرج من المصير إلى الله.

والمصير أوسع من الأخذ الدنيوي. فقد يهلك بعض الظالمين في الدنيا، وقد يموت آخرون على فراش مريح، لكن الجميع يصيرون إلى الله. فلا يُجعل العقاب العاجل شرطًا للإيمان بالعدل الإلهي؛ إنما تمام الفصل هناك.

وفي قوله: (إِلَيَّ) رهبة للمعتدي وأنس للمظلوم. كلاهما ذاهب إلى الله، لكن أحدهما يذهب حاملاً المظالم، والآخر يذهب حاملاً حقه وصبره. الجهة واحدة، والاستقبال مختلف باختلاف ما قدمت الأيدي.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثامن والثلاثون

النذير المبين: حدود الرسول ووضوح الرسالة

بعد عرض مصائر المكذابين، أمر الرسول ﷺ أن يعلن وظيفته:

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ).

عاد النداء العام الذي بدأت به السورة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ).

فالإنذار بالآخرة رسالة للإنسان بما هو إنسان، لا لقوم دون قوم. كل من يحيا سيموت، وكل من يعمل سيحاسب، وكل قلب محتاج إلى أن يستيقظ.

ثم جاءت أداة الحصر:

(إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ).

مهمة الرسول البلاغ والإنذار الواضح، لا إجبار القلوب على الإيمان، ولا إنزال العذاب بحسب اقتراح المكذابين. إنه عبد رسول، لا يملك من خصائص الربوبية شيئاً، ولا يتحكم في موعد الوعد.

وهذا من صفاء التوحيد في القرآن: يرفع مقام الرسول بالنبوة، ويحفظه من أن يُرفع إلى مقام الألوهية. محبته اتباع، وتعظيمه تصديق ونصرة، لا صرف شيء من خصائص الله له.

نذير مبين

النذير هو الذي يحذر من خطر مقبل، ووصفه بأنه (مُبِينٌ): واضح في إنذاره، ومبين للحقائق التي تنجي الناس.

والإنذار رحمة؛ لأن من رأى النار في طريق المسافر فسكت لم يرحمه، ومن رفع صوته محذراً قد أثقل عليه لحظته، لكنه أنقذ مستقبله.

ليست الرحمة أن تقول للإنسان ما يريحه الآن وتتركه لما يهلكه غداً. الرحمة أن تصدقه، لكن بلسان يريد نجاته لا إذلاله.

والرسول ﷺ لا ينذر من عند نفسه، بل بما أنزل الله؛ لذلك كان إنذاره مبيناً، لا تخميناً ولا تهويلاً بشرياً.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل التاسع والثلاثون

مغفرة ورزق كريم

بعد الإنذار يأتي التفصيل بين الفريقين:

(فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ).

تكرر اقتران الإيمان بالعمل الصالح؛ لأن الإيمان في القرآن حياة ينبغي أن تظهر آثارها. وليس المقصود العصمة من الذنب، بدليل أن أول جزائهم المذكور:

(مَغْفِرَةٌ).

المؤمن يعمل الصالحات، لكنه يظل محتاجاً إلى المغفرة. لا يدخل على الله معجباً بعمله، ولا يرى طاعته ديناً على ربه؛ يعرف ما في عمله من نقص، وما في نعمة الله من سبق، فيسأل أن يغفر له قبل أن يسأل العطاء.

وقد تمت المغفرة على الرزق؛ لأن إزالة ما يخيف مقدمة على نيل ما يُحب. يُطهر العبد من أوزاره، ثم يدخل عليه النعيم بلا منغص.

ورزق كريم

لم يقل: رزق كثير فقط، بل قال:

(وَرَزَقٌ كَرِيمٌ).

الكرم هنا يصف الرزق بما فيه من الشرف والطيب والدوام، وبما يصاحبه من تكريم صاحبه. فليست كل كثرة كريمة؛ قد يكثر الشيء ويختلط بالمهانة والخوف والتعب. أما رزق الآخرة فكريم في مصدره، وكريم في صورته، وكريم في أثره؛ لا يذل صاحبه، ولا يعقبه فناء، ولا يثير حسدًا أو خصومة.

وفي الدنيا أيضًا قد يرزق الله المؤمن رزقًا كريمًا لا يُقاس بكثرته وحدها: قناعة تحفظ وجهه، وعلماً ينير قلبه، وصاحبًا صادقًا، وطمأنينة لا تشتريها الخزائن. غير أن كمال الوعد في الآخرة.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الأربعون

الذين يسعون في آيات الله معاجزين

وفي الطرف المقابل:

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ).

لم يقل: والذين لم يؤمنوا فقط، بل وصف حركة نشطة ضد الحق:

(سَعَوْا فِي آيَاتِنَا).

السعي بذل جهد متصل. إنهم لا يقفون موقف المعرض وحده، بل يعملون لإبطال أثر الآيات، وتشويهها، والصد عنها، وإطفاء نورها في القلوب.

وكم هو غريب أن ينفق الإنسان عمره في مقاومة الكلام الذي جاء لإنقاذه! تتحول مواهبه التي كان يمكن أن يخدم بها الحق إلى أدوات لحبه، ويحسب نجاحه في صرف إنسان عن الهداية انتصارًا، مع أنه يضيف إلى حمله ضلال غيره.

معاجزين

أي يظنون أنهم يعجزون الله، أو يسابقون أمره ويفوتونه، أو يحاولون إظهار عجز الرسول والمؤمنين. وفي اللفظ روح تحدٍ متوهم: كأنهم دخلوا في سباق مع القدرة الإلهية، يظنون أن خطتهم أسرع من قدر الله، وأن دعاية أو قمعًا أو حصارًا يستطيع أن يمنع ما أراده.

سُورَةُ الْحَجِّ

لكن ما قيمة سعي المحدود أمام إرادة من يقول للشيء كن فيكون؟ إنهم قد يؤخرون وصول الحق إلى موضع، أو يؤذون حملته، لكنهم لا يخرجون من ملك الله ولا يعجزونه.

والمعاجز هو في الحقيقة الذي يرهق نفسه في مطاردة المستحيل. يريد أن يطفئ النور الذي أودعه الله في الوحي، وكلما نفخ فيه زاد وجهه اسودادًا وبقي النور.

أصحاب الجحيم

قال:

(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ).

الصحبة تدل على الملازمة. لقد صاحبوا في الدنيا مشروع محاربة الآيات، فصارت الجحيم صاحبته في الآخرة. ومن اختار جهة في الدنيا، حُشر مع حقيقتها.

وبين الفريقين مقابلة دقيقة: المؤمنون لهم مغفرة تمحو آثار النقص، ورزق كريم يفيض عليهم؛ والمعاجزون لهم الجحيم ملازمة وإحاطة. أولئك استقبلوا الآيات فعملوا الصالحات، وهؤلاء سعوا فيها إبطالًا. لم يكن الاختلاف كلمة مجردة، بل طريقين انتهى كل واحد منهما إلى منزل يناسبه.

بعد أن بيّنت السورة مصير الذين يسعون في آيات الله معاجزين، فتحت نافذة على سنة دقيقة من سنن الصراع بين الوحي والباطل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

هذه آية ينبغي تناولها بوقار العلم ودقة العقيدة؛ إذ تعلق بها روايات مضطربة لا تثبت، وأدخل فيها ما يوهم أن الشيطان ألقى في الوحي نفسه ما ليس منه، وهذا باطل يصادم حفظ الله لكتابه وعصمة رسله في تبليغ رسالاته.

والذي يدل عليه السياق أن كل رسول ونبي إذا تمنى هداية قومه، أو تلا الوحي وبلغه، ألقى الشيطان في طريق أمنيته، أو في أسماع المعاندين وتأويلاتهم، من الشبهات والوساوس والتلبيس ما يريد به إفساد أثر الرسالة. لكن الله يبطل ما يلقيه الشيطان، ويثبت آياته محكمة صافية.

فالشيطان لا يملك أن يصنع وحيًا داخل الوحي، لكنه يحاول أن يصنع حول الوحي ضبابًا؛ يحرف الفهم، ويثير الشبهة، ويزين الاعتراض، ويوسوس للقلوب المريضة بما يحجبها عن دلالاته.

وما أرسلنا من قبلك

بدأت الآية بالتسليية مرة أخرى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ)

فالمقاومة الشيطانية ليست حادثة خاصة بالرسالة الخاتمة، بل سنة رافقت
موكب النبوات. كلما أضاء الله للناس طريقاً، حاول الشيطان أن يضع عند
مدخله ستاراً من الشبهة أو الشبهة.

وهذا يكشف طبيعة المعركة: ليست بين كلمات بشرية متنافسة فحسب، بل
بين هداية تريد أن تعيد الإنسان إلى ربه، ووسوسة تريد أن تقطعه عنه.
ولهذا لا يكفي وضوح الدليل ما لم يستعذ القلب بالله من الهوى الذي يسيء
قراءة الدليل.

إذا تمنى

الأمنية قد تكون ما يريجه الرسول من إيمان قومه وانتشار الهدى، وقد تأتي
في لسان العرب بمعنى القراءة والتلاوة. والمعنيان يلتقيان في مقام البلاغ؛
فالرسول يتلو رسالة ربه، ويرجو أن تفتح بها القلوب.

وما أظهر أمنية الرسول! لا يريد من الناس مالا ولا جاهاً، ولا أن تتحول
دعوتهم إلى مجد شخصي؛ يريد نجاتهم. يؤذونه ويكذبونه، وهو يتمنى لهم
الإيمان.

لكن الشيطان يتربص بهذه اللحظة نفسها:

(أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ).

إنه يحاول أن يتسلل بين الكلمة والقلب، وأن يحول النور في عين المريض إلى مادة فتنة، وأن يجعل الدعوة التي جاءت لتجمع الناس سبباً لمزيد من العناد عند من اختار العناد.

قد يلقي في نفوس المكذبين أن الرسول يريد سلطاناً، أو أن الوحي حكايات قديمة، أو أن اتباع الحق يهدد مكانتهم ومصالحهم. وقد يثير حول النص شبهات ليست فيه، ثم يحاكمه إلى الشبهات التي صنعها.

هذه حيلة قديمة: لا تواجه الحقيقة كما هي، بل اصنع لها صورة مشوهة، ثم حارب الصورة التي صنعتها.

فينسخ الله ما يلقي الشيطان

قال سبحانه:

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ).

أي يبطله ويزيل أثره. جاءت الفاء سريعة لتعلن أن الإلقاء الشيطاني ليس له استقلال أو بقاء أمام حفظ الله. قد يثير ضجيجاً، لكنه لا يملك الكلمة الأخيرة.

الشيطان يلقي، والله ينسخ. والمخلوق المحدود يتحرك داخل سلطان الخالق، فلا يستطيع أن يحول مكره إلى حقيقة دائمة إذا أبطلها الله.

سُورَةُ الْحَجِّ

وهذه طمأنينة عظيمة لمن يحمل رسالة الحق. قد تحيط بكلمته الأكاذيب، وتُقتطع من سياقها، وتُنسب إليها مقاصد لم يردها، ويكثر المشوشون حتى يبدو صوتهم أعلى منها؛ لكن الله قادر أن يزيل الركام ويظهر صفاء المعنى.

وقد يتأخر هذا الانكشاف في أعين الناس، لكنه ثابت في علم الله ووعد. إن الباطل سريع الضجيج، أما الحق فبعيد البقاء.

ثم يحكم الله آياته

بعد الإزالة يأتي الإثبات:

(ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ).

الإحكام تثبيت ومنع من التطرق إلى الخل، وبيان لاتساق الآيات وصدقها. فالقرآن لا تحفظه قوة بشرية وحدها، بل يحفظه الذي أنزله.

وفي ترتيب النسخ ثم الإحكام معنى بدیع: يزيل الله ما ألقاه الشيطان، ثم يظهر رسوخ الآيات، وكأن الشبهة التي أريد بها إسقاط الحق تصبح مناسبة لمزيد من ظهوره. إذ يندفع العلماء لبيان المعنى، وتتكشف وجوه الاتساق، ويتعلم المؤمنون التمييز، فيخرج الوحي في وعيهم أشد إحكامًا.

كم من شبهة أثيرت لتطفئ القرآن، فكانت سبباً لفتح باب من أبواب تدبره!

ختمت الآية باسمين:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

عليم بما يلقي الشيطان، وبمداخل القلوب، وبصدق الرسول، وبمن يطلب الحق ومن يتخذه ستارًا للمراء. حكيم في السماح بالابتلاء، وفي إبطال الباطل، وفي توقيت ظهور الحق.

قد يتساءل الإنسان: لماذا يسمح الله للشبهة أن توجد أصلاً؟ والجواب يفتحه اسم الحكيم؛ لأن عالم التكليف لا تظهر فيه حقيقة القلوب من غير امتحان، ولا يتمايز صادق الطلب من متبع الهوى من غير وجود ما يكشف اختياره.

الفصل الثاني والأربعون

الشبهة التي تكشف مرض القلب

تبيّن السورة الحكمة من هذا الإلقاء الشيطاني:

(لِيَجْعَلَ مَا يُقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ).

الفتنة اختبار يكشف حقيقة المعدن. وما يليقه الشيطان لا يخلق المرض دائماً من العدم، بل يجد في القلب قابلية سابقة، فيوقظها ويوسعها.

كالماء نفسه: تنبت به الأرض الطيبة، وقد يثير رائحة العفن في موضع فاسد. والوحي واحد، لكن القلوب تختلف في استقباله؛ يجد فيه المؤمن هداية، ويبحث فيه المريض عما يبرر مرضه.

مرض وقسوة

فرقت الآية بين صنفين:

(الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ).

القلب المريض لم يمت، لكنه مختل؛ فيه شهوة أو شك أو نفاق أو تعلق بالباطل يضعف قدرته على استقبال الحق. أما القلب القاسي فقد اشتد تصلبه، فلا تليّنه الموعظة بسهولة، ولا تحركه آيات الوعد والوعيد.

المرض قابل للعلاج إذا صدق صاحبه ولجأ إلى الله، أما القسوة فهي مرحلة مخيفة من تراكم الإعراض. تبدأ القسوة غالبًا بخاطرة لم تدفع، ثم ذنب لم يُتَب منه، ثم تبرير، ثم اعتياد، حتى يفقد القلب حساسيته.

في البداية يؤلم الإنسان أن يعصي، ثم يآلف المعصية، ثم يدافع عنها، ثم يسخر ممن يذكره. هذه هي الرحلة من الضعف إلى القسوة.

لماذا يحب المريض الشبهة؟

لأن الشبهة قد تمنحه راحة زائفة من صراع الضمير. فإذا كان الحق يطالبه بتغيير شهوة، أو رد مظلمة، أو خفض كبره، بحث عن اعتراض يخفف عنه ضغط التكليف. لا يسأل: هل هذا الاعتراض صحيح؟ بل يسأل في باطنه: هل يعطيني مما لا أريد؟

لذلك قد تقدم له جوابًا واضحًا، فيتركه ويبحث عن شبهة أخرى. لم تكن مشكلته في نقص الجواب، بل في حاجته النفسية إلى استمرار الاعتراض.

إن علاج الشبهة ليس فكريًا دائمًا وحده؛ فقد يحتاج القلب إلى توبة من هوى يمنعه من الإنصاف. فبعض الأسئلة لها جذور أخلاقية، وإن خرجت في صورة عقلية.

شَقَاقٌ بَعِيدٌ

قال تعالى:

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ).

الشقاق أن يصير المرء في شق والحق في شق آخر. ووصفه بالبعد؛ لأنهم لم يقفوا عند مخالفة قريبة يمكن أن تردّها كلمة، بل أوغلوا في الانفصال حتى صار الرجوع شاقًّا على نفوسهم.

ومع ذلك لم يقل إن الرجوع ممتنع ما داموا في دار التكليف؛ فالباب مفتوح، لكن المسافة التي صنعوها تحتاج إلى صدق عظيم لقطعها.

والظلم هو الذي دفعهم إلى ذلك البعد: ظلّمهم لأنفسهم بإفساد فطرتهم، وظلمهم للآيات بتحريف دلالاتها، وظلمهم للرسول باتهامه، وظلمهم للناس بصدّهم عن سبيل الله.

كل ظلم يبعد الإنسان خطوة عن مركز الحق، حتى يستوحش من النور لأنه طال مقامه في الظلام.

حين تصبح الشبهة بابًا إلى اليقين

في مقابل القلوب المريضة والقاسية، تذكر السورة أهل العلم:

(وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

ما كان فتنةً للمريض صار زيادة علم للمبصر. الشبهة نفسها التي اتخذها القاسي سببًا للبعد، حملت العالم الصادق على مزيد من البحث، فانكشف له إحكام الآيات، فازداد يقينًا.

وهذه إحدى سنن الحق: أنه لا يخاف السؤال الصادق، بل يزداد به ظهورًا. الذي يخاف هو الباطل؛ لأنه يعيش على ألا تُكشف تناقضاته. أما الوحي فكلما قُرئ بقلب منصف وعلم راسخ ظهرت وحدة نظمه وصدق خبره وسمو هدايته.

الذين أوتوا العلم

قال:

(أُوتُوا الْعِلْمَ).

فنسب العلم إلى العطاء. فالعلم نعمة لا ملك ذاتي، ومن عرف أنه أوتيها تواضع، ومن ظن أنه أنشأه من نفسه تكبر به.

وهؤلاء لم يستعملوا العلم سلماً للاستعلاء، بل أوصلهم إلى الاعتراف:

(أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ).

العلم الذي لا يقود صاحبه إلى التواضع أمام الحق ناقص البركة، ولو كثرت محفوظاته. والعالم الحق لا يقيس الحقيقة بمكانته؛ بل يقيس مكانته بقربه منها.

الحق من ربك

قوله: (مِنْ رَبِّكَ) يجمع البرهان والرحمة. فهو الحق؛ لا باطل فيه، وهو من ربك؛ الذي يتعهدك ويربيك ويحفظ رسالتك.

الوحي ليس معلومة سقطت من سماء بعيدة، بل خطاب رباني يربي الإنسان ويقوده. وكل أمر ونهي وقصة ومثل فيه جزء من هذه التربية.

وحين يعرف المؤمن أن القرآن من ربه، لا يقرأه كما يقرأ وثيقة تاريخية باردة؛ يسمع فيه خطابًا مقصودًا إليه، ودواءً لمرضه، ونورًا لطريقه.

فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم

جاءت الفاء مرتين في تتابع جميل:

(فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ).

علمٌ، إيمانٌ، فإخبات. لم يبق العلم في الرأس، بل هبط إلى القلب فجعله ساكنًا خاضعًا لله. وهذه غاية المعرفة الدينية: ألا تضخم الذات، بل تخفضها للحق.

سُورَةُ الْحَجِّ

والإخبات هنا ليس خمولاً، بل طمأنينة تستقر بعد انكشاف الحقيقة. القلب قبل اليقين قلق تتنازع الاحتمالات، فإذا عرف الحق وأذن له وجد أرضه التي يسكن إليها.

وقال: **(لَهُ)**، أي للحق أو لله؛ والمعنيان متلازمان، فالخضوع للحق المنزل خضوع لمن أنزله. وليس الإخبات للعالم أو المفسر أو الداعية، بل لله. دور أهل العلم أن يوصلوا القلوب إلى ربها، لا أن يجعلوا أنفسهم حجاباً بينها وبينه.

لهادي الذين آمنوا

قال سبحانه:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

جاء الوصف بصيغة اسم الفاعل: **(لَهَادِ)**، دالاً على ثبوت الهداية وتجدها. فالمؤمن لا يستغني بإيمانه الأول عن هدايات لاحقة؛ يحتاج إلى هداية في فهم الشبهة، وفي اختيار الموقف، وفي ضبط الغضب، وفي استعمال القوة، وفي الثبات عند الفتنة.

والصراط مستقيم لأنه يوصل إلى الله من غير اعوجاج الهوى. قد يكون شاقاً، لكنه واضح الوجهة. أما طرق الباطل فقد تبدو سهلة في أولها، لكنها ملتوية تستهلك العمر ولا تبلغ بصاحبها أمناً.

سُورَةُ الْحَجِّ

ما أجمل التناسب بين القلب المخبت والصراط المستقيم! حين يهدأ الداخل على الحق، تستقيم الحركة في الخارج. فالاضطراب الأخلاقي كثيراً ما يبدأ من قلب لم يستقر له مركز.

ثم تعرض السورة مآل الذين أغلقوا قلوبهم:

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ).

(لَا يَزَالُ) ترسم استمرارًا طويلًا. لم تعد الشبهة سؤالًا عابرًا، بل صارت بيتًا أقاموا فيه. كلما انكشف لهم وجه من الحق صنعوا بابًا جديدًا للهرب.

والمرية شك ممزوج بالجدال والاضطراب. فهم ليسوا في شك هادئ يطلب اليقين، بل في ارتياب يقاومه.

حتى تأتيهم الساعة بغتة

هناك وقت ينتهي فيه إمكان السؤال، لا لأن الحقيقة عجزت عن الجواب، بل لأن زمن الاختيار انتهى:

(حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً).

البغته هي المجيء المفاجئ من غير استعداد. وقد بدأت السورة بزلزلة الساعة، وها هي تعود إليها بعد رحلة طويلة، كأن ذلك المشهد الأول ظل واقفًا خلف الآيات كلها.

يعيش الإنسان كأن الساعة بعيدة لأنه لا يعرف موعدها، لكن خفاء الموعد لا يعني بعده. بل إن كل موت ساعة خاصة بصاحبه؛ ينغلق به سجل العمل، وتبدأ رحلة المصير.

والمفاجأة ليست في أن الناس لم يُخَبَرُوا، فقد جاءتهم النذر، وإنما في أنهم عاشوا ضد ما علموا. كل يوم كان يقول لهم إن العمر ينقص، وكل جنازة كانت رسالة، وكل شيب كان إنذارًا؛ لكن الاعتياد أسكت المعنى حتى جاء الحدث الذي لا يمكن تأجيله.

أو يأتيهم عذاب عقيم

اليوم العقيم هو اليوم الذي لا خير فيه للكافرين، أو اليوم الذي لا يوم بعده يمهلم للعمل، وقيل هو يوم بدر في سياق العذاب العاجل. واللفظ يفتح هذه الظلال على معنى الانقطاع من كل ثمرة مرجوة.

العقيم لا يلد. وكذلك ذلك اليوم لا يلد لهم فرصة جديدة، ولا ينتج رجوعًا إلى الدنيا، ولا يفتح بابًا لاستدراك العمر.

وقد كان كل يوم قبل ذلك ولوذا بالفرص: يستطيع الإنسان أن يتوب، وأن يعتذر، وأن يرد حقًا، وأن يبدأ صفحة. أما اليوم العقيم فيأتي بعد أن أضاع الأيام الخصبة كلها.

إن أخطر ما في التسويف أنه يحول الأيام القابلة للإنفاذ إلى طريق ينتهي بيوم لا ينبج فرصة.

الملك يومئذ لله: حين تسقط الممالك المستعارة

قال تعالى:

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
○ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا قُلُوبُهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ).

الملك لله في الدنيا والآخرة، فلماذا خُص ذلك اليوم بالذكر؟ لأن الحقيقة التي تخفى على المغرورين في الدنيا تظهر هناك بلا حجاب. في الدنيا يتوهم الملوك أنهم يملكون، ويتصرف الغني كأن خزائنه من ذاته، ويتحدث القوي كأن أمر الناس في يده. أما يوم القيامة فتسقط الملكيات المستعارة، ويظهر الملك الواحد الذي لم يرغب لحظة.

إن ملك البشر محدود ومؤقت وممنوح. يملك الواحد شيئاً ولا يملك شيئاً آخر، ويأمر بعض الناس ولا يستطيع أن يأمر المرض بالمغادرة، ويفتح أبواب القصور ولا يملك أن يغلق باب الموت.

أما ملك الله فشامل لا يخرج عنه شيء.

يحكم بينهم

ثمرته الظاهرة:

(يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ).

إنه الحكم الذي انتظرته كل قضية لم تنصف في الأرض، وكل حقيقة شوهتها الدعاية، وكل دم ضاع اسمه، وكل مظلوم مات قبل أن يسمع اعتذارًا.

لا يحتاج حكم الله إلى مراجعة تكشف له خطأ، ولا إلى شاهد قد يكذب، ولا إلى ميزان تميل به الرشوة أو القرابة. يعلم ما حدث، ولماذا حدث، وما خفي وراء القول والفعل.

وهذا اليقين لا يجعل المؤمن سلبياً أمام مظالم الدنيا؛ بل يمنحه أساساً ثابتاً لمقاومتها. لأنه يعرف أن العدل حقيقة كونية متصلة باسم الله، لا اتفاقاً بشرياً هشاً.

في جنات النعيم

قال في المؤمنين:

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ).

لم يقل: لهم نعيم فقط، بل جعلهم داخل جنات تحيط بهم؛ كما تحيط الرحمة بمن دخلها. والنعيم هنا شامل للجسد والروح، فلا ألم، ولا خوف من زوال، ولا ذكرى موجعة تعكر الصفاء.

وجاء دخولهم ثمرة الإيمان والعمل الصالح؛ لا الانتساب المجرد ولا الأمنيات. لقد آمن القلب وتحرك الجسد، فجاء الجزاء جامعًا لنعيم القلب والجسد.

عذاب مهين

وفي المقابل:

(فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ).

أضاف الإهانة إلى الألم؛ لأن جرمهم لم يكن مجرد خطأ فكري، بل استكبارًا على الحق وتكذيبًا بآيات الله. طلبوا العزة في مقاومة الوحي، فانتهوا إلى الإهانة.

وما أدق المقابلة بين (جَنَّاتِ النَّعِيمِ) و(عَذَابٌ مُّهِينٌ): نعيم يكرم المؤمن، وعذاب يكشف حقيقة المتكبر. فالآخرة لا تظهر مصير العمل وحده، بل تكشف جوهره المستور.

من تواضع لله في الدنيا رفعه، ومن طلب الرفعة بمعصيته أذله. وهكذا تكون الجبهة التي سجدت على التراب أقرب إلى الكرامة من رأس أبي أن ينحني للحق.

الهجرة التي تنتهي إلى رزق كريم

بعد أن فصلت السورة بين المؤمنين والمكذبين يوم يكون الحكم لله وحده، أفردت جماعة من المؤمنين بمشهد خاص من التكريم:

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

إنهم الذين لم يكتفوا بالإيمان القلبي، بل غادروا أوطانهم حين صار البقاء فيها فتنة في الدين أو عجزاً عن إقامة الحق. والهجرة ليست انتقالاً جغرافياً فحسب؛ إنها شهادة بأن العقيدة أغلى من المكان، وأن الإنسان قد يترك ما يألّفه لكي يحفظ ما خلق لأجله.

والديار عزيزة؛ ففيها البيت والذكريات والأصحاب ومقابر الأحبة. وليس اقتلاع النفس منها أمراً هيناً. لذلك حفظ القرآن للمهاجرين هذه التضيعة، ولم يجعل رحيلهم صفحة منسية في الطريق.

في سبيل الله

قيدت الآية الهجرة بقولها: (فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

فهناك من يهاجر طلباً للرزق، أو فراراً من ضيق، أو سعياً إلى جاه، وكل ذلك قد يكون مباحاً بحسب حاله؛ لكن الوعد الخاص هنا لمن كانت هجرته لله، يحمل معه إيمانه وهو يترك وراءه ما يحب.

سُورَةُ الْحَجِّ

ليست قيمة المشقة في المشقة نفسها، بل في الجهة التي تحملت من أجلها. قد يتعب اثنان في سفر واحد، ويكون بينهما عند الله ما بين نيتين. أحدهما رأى الطريق تضحيةً لله، والآخر رآه سلماً لنفسه.

ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا

قال تعالى:

(ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا).

جمع بين من قُتل في سبيل الله ومن مات على فراشه بعد الهجرة. فليس الفضل متوقفاً على الصورة الظاهرة للخاتمة وحدها؛ من خرج لله ثم أدركه الموت الطبيعي لم يضع سعيه، ولم تنقصه طريقة موته من ثواب صدقه.

وهذا من عدل الله ورحمته؛ فهو لا يحاسب العبد على نهاية لم يخترها، بل على النية والطريق الذي اختاره. قد يتمنى المرء الشهادة بصدق ثم يموت بعيداً عن المعركة، فيعلم الله من قلبه ما لا يعلمه الناس.

وجاءت (ثُمَّ) لتدل على تراخي النهاية بعد الهجرة، قصرت المدة أو طالت. لقد خرجوا ثم مضوا في الطريق، وكانت خاتمتهم بين قتل وموت، لكن الجهتين التقنا عند رزق الله.

ليرزقنهم الله رزقًا حسنًا

أكد الوعد باللام ونون التوكيد الثقيلة:

(لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ).

لقد تركوا أرزاقًا وبيوتًا وأسبابًا مألوفة في سبيله، فوعدهم برزق لا يقطعه قتل ولا موت. كان الناس قد يظنون أنهم خسروا حين فارقوا الدنيا، لكن القرآن يقلب زاوية النظر: لم ينقطع رزقهم، بل انتقل إلى صورة أحسن.

ووصفه بأنه:

(رِزْقًا حَسَنًا).

حسن في ذاته، وحسن في دوامه، وحسن في الطريق إليه؛ لا منة لمخلوق فيه، ولا خوف من نفاذه، ولا شبهة تكدره، ولا مرض يمنع التلذذ به.

ثم قال:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

اجتمع التوكيد بـ(إِنَّ) واللام وضمير الفصل: (لَهُوَ)، ليقرر في القلب أن الرزق الحقيقي بيد الله. البشر قد يكونون أسبابًا، لكنهم لا يخلقون الرزق، ولا يضمنون استمراره، ولا يستطيعون إيصاله بعد الموت.

سُورَةُ الْحَجِّ

والله خير الرازقين؛ لأنه يرزق من غير افتقار، ويعطي من غير أن تنقص خزائنه، ويعلم حاجة المرزوق قبل سؤاله، ويرزق الجسد والروح، والدنيا والآخرة.

من عرف الرزاق لم يمنع الخوف على رزقه من الهجرة إلى الحق، ولم يبع مبدأه لمن يلوح له بالمنع والعطاء.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل السابع والأربعون
مدخلًا يرضونه

يزيد الله الوعد بيانًا:

(لِنُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ).

لم يقل: يدخلهم مكانًا حسنًا فحسب، بل وصف أثره في نفوسهم:

(مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ).

والرضا أوسع من اللذة؛ إنه سكون النفس إلى تمام العطاء، فلا تتطلع إلى بديل، ولا تخشى زوال ما نالت، ولا تجد في داخلها نقصًا يعكر عليها النعيم.

كم من مدخل في الدنيا دخله الإنسان طامعًا، ثم اكتشف أن ما وراء الباب أقل مما تخيل! وكم من منصب أو بيت أو بلد علق عليه أمله، فلما بلغه بقي في روحه فراغ! أما المدخل الذي وعد الله به، فإنه يطابق أعماق أشواق النفس ويجاوزها.

إنه دخول الجنة ورضوان الله، حيث تنتهي غربة المهاجر، ويجد وطنًا لا يُخرج منه، وأمنًا لا يطارده طاغية، واجتماعًا لا يقطعه موت.

خرجوا من ديارهم بغير رضاهم، فدخلهم الله مدخلًا يرضونه. يا لها من مقابلة جابة! إخراج قسري من بيت محدود، يقابله إدخال كريم إلى دار الخلود.

قال سبحانه:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ).

عليه بتضحياتهم، وبوحشة الطريق، وبالبيت الذي تركوه، وبالدمعة التي أخفوها، وبالنية التي لم يرها الناس. فلا يحتاج المهاجر إلى أن يشرح لله مقدار ألمه؛ فقد علمه قبل أن ينطق به.

وحليم لا يعاجل العصاة بالعقوبة، ويمهل المعتدين مع قدرته عليهم. وليس الحلم ضعفاً؛ بل قوة يضبطها الحكمة. وقد يتساءل المظلوم: لماذا لم يؤخذ الظالم فوراً؟ فيأتي اسم الحليم ليعلمه أن التأخير ليس عجزاً ولا نسياناً، وأن الذي يعلم الجريمة قادر عليها، لكنه يجري الأمور بأجل.

كما أن حلم الله باب للمؤمن كي يتخلق بالحلم؛ فلا تجعله القوة سريع الانتقام، ولا يحمله جرحه على تجاوز العدل. من قاتل تحت راية الله ينبغي أن يبقى عبداً للحليم، لا أسيراً لغضبه.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثامن والأربعون

حين يكون الرد عدلاً ثم يعود البغي

قال تعالى:

(ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ).

تأتي هذه الآية لتضع ميزاناً بالغ الدقة في استعمال القوة. فقد أذن للمظلوم أن يرد بمثل ما وقع عليه، لا أن يجعل مظلمته رخصة مفتوحة لتجاوز الحدود.

(وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ).

سمى الأذى الأول عقوبة من باب المشاكلة اللفظية، وإن كان في حقيقته عدواناً، ثم جعل رد المظلوم مماثلاً له. واللفظ نفسه يرسم الحد: (بِمِثْلِ). لا زيادة بدافع الغضب، ولا نقل للعدوان إلى بريء، ولا تحويل لحق الدفاع إلى شهوة انتقام.

وهذا هو الفارق بين عدل الوحي ومنطق الثأر. الثأر يريد أن يطفئ الألم بإيلام أكبر، فيفتح سلسلة لا تنتهي. أما العدل فيرد العدوان بقدره، ثم يقف عند الحد.

سُورَةُ الْحَجِّ

ثم بُغِيَ عَلَيْهِ

قال تعالى:

(ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ).

أي عاد المعتدي فظلمه بعد أن رد المظلوم في حدود حقه. هنا يأتي الوعد المؤكد:

(لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ).

من التزم العدل وهو مجروح، ثم استمر البغي عليه، صار أهلاً للنصرة. لقد أثبت أنه لا يقاتل طلباً للعدوان، بل دفعاً له؛ وأنه حين ملك الرد لم يتجاوز المثل.

وفي هذا تربية للأمة وهي تدخل طور القوة: نصره الله لا تُستجاب بالشعارات وحدها، بل بالعدل حتى مع الخصم. فإذا تجاوز المظلوم الحد، خسر صفاء قضيته بقدر تجاوزه، وصار في فعله جزء من البغي الذي خرج لرده.

عفو غفور

قد يبدو المتوقع أن تختتم الآية باسم القوي العزيز، لكنها قالت:

(إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ).

وللخاتمة دلالات عميقة. فهي تفتح باب العفو فوق حق المماتلة؛ فالرد جائز، لكن العفو عند القدرة قد يكون أرفع إذا حقق الإصلاح ولم يشجع الظالم على التماذي.

كما أنها تذكر المظلوم، وهو يعاقب بالمثل، بأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته؛ فلا يتأله في خصومته، ولا يتصرف كأنه منزّه عن النقص. والذي يطلب مغفرة الله ينبغي أن يعرف قدر المغفرة في تعامله مع الخلق.

وقد يكون في ذكر العفو والمغفرة طمأنة لمن رد في حدود الحق؛ فإن وقع منه تقصير غير متعمد فالله عفو غفور، مع وجوب الحذر من التجاوز ورد الحقوق.

إن قوة الإسلام ليست قسوة، وعدله ليس تعطشاً للعقوبة. يسمح بالدفاع كيلا يستبد الباطل، ويحبب في العفو كيلا يتحول رد العدوان إلى هوية دائمة للمجتمع.

لأن الله يولج الليل في النهار

بعد الحديث عن النصرة والرد، تنتقل السورة البصر إلى مشهد كوني:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

إن الذي ينصر المظلوم ويغير موازين القوة هو نفسه الذي يدير حركة الليل والنهار. فلا تستبعد انقلاب حال لأنك رأيت الباطل ممتدًا؛ فالكون كله قائم على التعاقب، والظلام مهما طال يحمل في أطرافه طريقًا إلى الفجر.

يولج: دخول متدرج خفي

الإيلاج إدخال الشيء في الشيء. واللفظ يصور الليل والنهار لا كجدارين منفصلين، بل كحالتين تتداخلان بأمر الله؛ يدخل من ساعات هذا في ذاك، فيطول أحدهما ويقصر الآخر، ثم تتعكس الدورة.

ولا نرى لحظة واحدة حادة يمسك فيها النهار بطرف الليل؛ بل يجري التحول في تدرج لطيف. وهذا من حكم الله في الكون والتاريخ والنفوس. بعض التحولات الكبرى تبدأ خفية، فلا يلحظ الناس دخول الفجر في جسد الظلام، ثم يفاجئون بالضياء وقد ملأ الأفق.

وقد يرى المظلوم ليله ساكنًا لا يتغير، لكن يد الله تُدخل فيه من النهار ما لا يبصره بعد. تتآكل قوة الباطل من الداخل، وتنضج عوامل النهوض، وتستيقظ ضمائر، حتى يظهر التحول الذي كان يجري مستورًا.

قال تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

سميع لأنات المظلوم ودعائه، وبصير بما يقع عليه من بغي. لا تحجب عنه الزنازين صوتاً، ولا يستتر ظلام الليل جريمة، ولا تضيع عنده كلمة استغاثة عجز صاحبها عن رفعها.

والسمع والبصر هنا أساس للنصرة؛ فالحاكم البشري قد يخطئ لأنه لم يسمع القضية أو لم ير الواقعة، أما الله فلا يفوته صوت ولا مشهد.

وهو سميع كذلك لما يقوله المظلوم حين يرد، بصير بما يفعله؛ فلا تكون مظلوميته ستاراً يخرج من المراقبة. الله يرى الطرفين، ويحكم بينهما بالعدل.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الخمسون

الله هو الحق وما يدعون من دونه هو الباطل

قال سبحانه:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

عادت السورة إلى القاعدة التي قررتها عند الاستدلال على البعث:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ).

فكل تفاصيلها ترجع إلى هذا الأصل: القيامة حق لأن الله هو الحق، والنصر حق، والتوحيد حق، والشعائر حق، والعدل حق؛ لأنها متصلة به.

والحق هو الثابت في ذاته الذي لا يتطرق إليه زوال أو بطلان، والذي منه تستمد الأشياء وجودها ومعناها. أما ما سواه فوجوده مخلوق محدود، لا يستحق أن يُجعل إلهاً أو مرجعاً مطلقاً.

هو الحق

جاء ضمير الفصل: (هُوَ الْحَقُّ)، ليفيد التوكيد والاختصاص. ليست الحقيقة العليا موزعة بين آلهة وقوى، ولا الوجود ساحة بلا مركز؛ الله وحده الحق الكامل.

سُورَةُ الْحَجِّ

ومن عرفه حقًا رأى العالم في مواضعه الصحيحة. لا ينكر الأسباب، لكنه لا يمنحها استقلالًا. لا يحتقر المخلوقات، لكنه لا يعبدها. يحب الناس، لكنه لا يجعل رضاهم فوق رضا الله. ينتفع بالدنيا، لكنه لا يتوهم أنها البقاء.

والله سبحانه هو الحق في ذاته وأسمائه وصفاته ووعدته وحكمه، منزّه عن مشابهة المخلوقات: (أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). وكل ما في الوجود قائم بإيجاده، محتاج إلى إبقائه، محكوم بأمره.

هو الباطل

وفي المقابل:

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ).

جاءت (مَا) عامة تشمل كل معبود من دون الله، حجرًا كان أو بشرًا أو قوة متوهمة. ووصفه بالباطل؛ لأنه لا يملك حق الألوهية، ولأن الصورة التي صنعها العابد عنه لا تطابق حقيقته.

قد يكون المعبود موجودًا في ذاته كمخلوق، لكن ألوهيته باطلة. فالبشر الذين غلا فيهم الناس موجودون، لكن نسبة خصائص الربوبية إليهم وهم. والمال موجود، لكن اعتقاد أنه يمنح الأمن المطلق باطل. والسلطة موجودة، لكن تصور أنها تصنع المصير النهائي باطل.

سُورَةُ الْحَجِّ

الباطل كثيرًا ما يبني قوته على استعارة صفات ليست له. يوهم الناس بالدوام وهو زائل، وبالقدرة وهو عاجز، وبالأمان وهو خائف، وبالاستغناء وهو محتاج. فإذا انكشف يوم القيامة، لم ينشأ بطلانه حينئذ، بل ظهر ما كان قائمًا فيه من البداية.

العلي الكبير

قال تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

العلي فوق خلقه علوًا يليق بجلاله، منزهاً عن مشابھتهم، العالي بقدره وقهره؛ والكبير الذي كل ما سواه صغير أمام عظمته.

وهذان الاسمان يهدمان كبر الطغاة وعلو الأصنام. من علا في الأرض فإن علوه محدود وتحت قهر الله، ومن كبر في أعين الناس فكبره نسبي زائل. أما الله فهو العلي على الحقيقة، الكبير على الحقيقة.

ولأن الله هو العلي الكبير، كان سجود العبد له رفعة لا مذلة. إنه لا يخضع لمخلوق يستثمر ضعفه، بل لرب كامل غني كريم، يرفع من تواضع له.

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ).

عادت السورة إلى صورة الماء والأرض، لكنها عرضتها هنا بلمسة مختلفة. في أولها قالت:

(فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ).

هناك كان المقصود برهان البعث، فبرزت حركة الأرض بعد همودها. أما هنا، بعد الحديث عن إدخال الليل في النهار والنصرة الخفية، جاء التركيز على لطف التحول:

(فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً).

فتصبح الأرض مخضرة

الماء ينزل من علٍ، ثم يتسرب إلى مواضع خفية، ويوقظ بذورًا مدفونة لا تراها العين، فإذا الأرض التي كانت جامدة قد اكتست خضرة.

والفاء تطوي أماننا المسافة بين نزول الماء وظهور أثره، كأن الرحمة إذا أذن الله لها أسرع. لكن لفظ (مُخْضَرَّةً) يرسم حالاً ممتدة تملأ المشهد باللون والحياة.

سُورَةُ الْحَجِّ

إنها صورة للأرض، وصورة للقلب أيضاً. تنزل آية من السماء على قلب بدا جافاً، فتدخل إلى موضع لا يراه الناس، ثم يظهر أثرها بعد زمن في كلمة صادقة، ودمعة، وتوبة، وإحسان.

لا تحتقر ماءً قليلاً من الموعظة؛ فقد يلقي قلباً فيه بذرة تنتظر.

لطيف خبير

ختمت الآية باسمين يناسبان الخفاء:

(إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ).

لطيف يوصل رحمته إلى عباده بطرق دقيقة لا يشعرون بها، ويدبر الأشياء من حيث لا تحيط أبصارهم. خبير بمواضع الماء، والبذور في التراب، وحاجات النفوس، ومآلات الأحداث.

قد تنظر إلى أرض قاحلة ولا ترى تحتها إمكان الخضرة، لكن الخبير يرى البذور، واللطيف يسوق إليها قطرة الماء. وقد تنتظر إلى واقع مظلم فتظنه مغلقاً، بينما يجري الله في أعماقه أسباب التحول.

واللطف ليس دائماً إزالةً فورية للألم؛ قد يكون حفظاً داخل الألم، أو إعداداً من خلاله، أو صرفاً لشر أعظم لم تره. ولا يجوز الجزم بحكمة تفصيلية لم يكشفها الله، لكن المؤمن يوقن بأصل عام: تدبير اللطيف لا يخلو من حكمة، وعلم الخبير لا يفوته شيء.

له ما في السماوات وما في الأرض

قال سبحانه:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

بعد مشهد المطر والأرض، توسعت الآية إلى الملك كله. كل ما في السماوات وما في الأرض له خلقًا وملكًا وتدبيرًا. الإنسان نفسه، وماله، والهدي الذي يذبحه، والأرض التي يملك وثيقتها، كلها داخلة في ملك الله.

وهذه الحقيقة لا تلغي الملكية البشرية المشروعة، لكنها تضعها داخل الملك الأعلى. أنت مالك على وجه الاستخلاف، لا الاستقلال؛ تتصرف في حدود إذن المالك الحقيقي، وستسأل عما وضع في يدك.

الغني

قال تعالى:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ).

هو الغني عن خلقه جميعًا، وهم الفقراء إليه. لم يأمرهم بالحج لأنه يحتاج إلى اجتماعهم، ولا بالهدي لأنه يحتاج إلى لحومهم، ولا بالذكر لأنه يستوحش من الصمت، تعالى الله عن ذلك.

سُورَةُ الْحَجِّ

إنما شرع لهم ما يزيكهم ويصلحهم. عبادتك لا تسد نقصاً في ملكه، بل تسد فقراً في روحك. وإذا عصيته لم تنقصه، وإنما نقصت نفسك من النور والكرامة.

وهذا يحرر العمل من المنه. فلا يقول العابد في باطنه: قدمت لله كثيراً؛ لأن كل ما قدمه من جسد وعمر ومال هو من عطاء الله أصلاً. أنت تعبد الله بقوة رزقك إياها، ثم يثيبك على استعمال نعمته في طاعته.

الحميد

وهو مع غناه:

(الْحَمِيدُ).

مستحق للحمد في ذاته وصفاته وأفعاله، محمود على نعمه الظاهرة والباطنة. وقد يجتمع الغنى في البشر مع البخل والاستعلاء، أما غنى الله فمفقرون بالحمد؛ يغني ويعطي، ويرحم ويستتر، ويفتح باب التوبة لمن عصاه.

إنه غني عنك، ومع ذلك يدعوك ويغفر لك ويرزقك. وأنت فقير إليه، ومع ذلك تعرض وتنسى! وهذه المفارقة وحدها تكشف سعة حلم الله وضعف الإنسان.

البحر يجري بأمره والسماء ممسوكة بإذنه

قال الله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ).

من اخضرار الأرض تنتقل العين إلى اتساع البحر وعلو السماء. والإنسان في الوسط محاط بنعم التسخير والحفظ؛ الأرض تحت قدميه مهياة، والفلك في البحر تحمله، والسماء فوقه ممسوكة.

سخر لكم ما في الأرض

تكرر معنى التسخير الذي مر في البُدن:

(سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ).

ليس معنى ذلك أن الإنسان يملك أن يفسد الأرض بلا حساب، بل أن الله جعل فيها من القوانين والموارد ما يستطيع الانتفاع به. والتسخير أمانة؛ فكلما اتسعت قدرة الإنسان على المادة، اتسعت مسؤوليته الأخلاقية.

العلم الذي يكشف سنن الكون لا يخرج الكون من يد الله، بل يفتح للإنسان أبوابًا جديدة لرؤية التسخير. اكتشاف القانون ليس خلقًا له؛ إنما هو تعرف إلى شيء أودعه الله.

والفلك تجري في البحر بأمره

الفلك جسم ثقيل يحمل فوق ماء متحرك بشراً وأمتعة، ويعبر بهم مسافات شاسعة. وقد يألف الإنسان السفينة فينسى دهشة المشهد، فيرد القرآن جريانها إلى أمر الله:

(وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ).

وقوله: **(بِأَمْرِهِ)** لا يلغي الأسباب المادية من بناء وريح ومحرك ومعرفة، بل يضعها كلها تحت مشيئة الله. فالقوانين نفسها أمر من أمره الكوني، والإنسان إنما ينتفع بها لأن الله جعلها مستقرة قابلة للعلم.

الحاج الذي يأتي من فج عميق قد حملته راحلة في البر أو فلك في البحر؛ وفي كل خطوة كان التسخير الإلهي يهيئ وصوله إلى البيت.

ويمسك السماء

قال تعالى:

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ).

إن الاستقرار الذي يحيط بنا ليس قائماً بذاته. الأجرام العظيمة تجري في نظامها، والسماء محفوظة من أن يقع منها ما يهلك الأرض إلا بما يأذن الله به.

سُورَةُ الْحَجِّ

والإنسان ينام آمناً تحت كون لا يملك تثبيت ذرة من نظامه. لا يستيقظ كل صباح ليمنع السماء من السقوط، ولا يدير الكواكب، ولا يحفظ توازن الأرض؛ ومع ذلك يعيش داخل حماية يومية صامتة لا يكاد يشكرها.

ننتبه إلى الرحمة حين يأتينا شيء نحبه، ونغفل عن آلاف الأخطار التي لم تقع لأن الله أمسكها. المنع نعمة، والاستقرار نعمة، وبقاء نظام الكون حولك منحة تتجدد في كل لحظة.

رؤوف رحيم

ختمت الآية بقوله:

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ).

الرفافة شدة الرحمة ورقنتها، والرحمة واسعة تشمل وجوه العناية. وقد ظهرت هنا في التسخير والإمساك: أعطى الناس ما ينتفعون به، ودفع عنهم ما يهلكهم.

قال: (بالنَّاسِ) على العموم؛ فرحمته الدنيوية تمتد إلى مؤمنهم وكافرهم، يرزقهم ويمسك عنهم السماء ويمهلهم. ولو عامل العصاة منذ أول لحظة بما يستحقون، ما بقي على الأرض من دابة.

لكن رحمته العامة في الدنيا ينبغي أن تقود الإنسان إلى رحمته الخاصة في الآخرة بالإيمان والطاعة؛ فلا يغتر بالإمهال، ولا يقرأ الرزق الدنيوي وحده دليلاً على الرضا.

تختتم هذه الجولة الكونية بإعادة الإنسان إلى رحلته الكبرى:

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ).

ثلاث كلمات تختصر تاريخ الإنسان كله:

(أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ).

إحياء أول أخرجكم من العدم، وموت ينقلكم من الدنيا، وإحياء ثانٍ للبعث والحساب. وبين هذه الأفعال يقف الإنسان مملوكًا لتدبير الله؛ لم يختَر بدء حياته، ولا يستطيع منع نهايتها، ولن يملك الامتناع عن بعثه.

أَحْيَاكُمْ

نسب الحياة إليه وحده. يستطيع البشر أن يصفوا مظاهرها، وأن يدرسوا الخلايا، وأن يأخذوا بأسباب حفظها، لكن سر الإحياء نفسه من أمر الله. لم يكن الإنسان موجودًا ثم صار، ولم يقدم طلبًا للوجود، ولم يدفع ثمن النعمة قبل أن ينالها.

الحياة أول عطية، وكل ما بعدها فرع عنها. ومع ذلك يعتادها الإنسان حتى لا يراها نعمة؛ يقلقه ما فاته داخل الحياة، وينسى أن الحياة نفسها أعظم ما مُنح ليعمل.

سُورَةُ الْحَجِّ

إنك قبل أن تملك المال والعلم والمنصب والصحة كنت قد مُنحت الأصل الذي جعل كل ذلك ممكناً: كنت حياً. ولكن النعم الكبرى كثيراً ما تختبئ من الشعور بسبب دوامها؛ فلا يرى الإنسان نعمة التنفس إلا حين يضيق نفسه، ولا نعمة المشي إلا حين تعجز قدمه، ولا نعمة الحياة إلا حين يقف عند سرير راحل.

ثم يميتكم

الموت ليس قوة مستقلة تنازع الله، بل فعل داخل تقديره:

(يُمِيتُكُمْ).

وهذا لا يزيل ألم الفراق، لكنه يحرره من العبث. المؤمن لا يرى الموت ثقباً خرج منه الأحبة من علم الله، بل انتقالاً كتبه الذي أحياهم أول مرة.

وجاء المضارع لأن الموت يتجدد في الناس، وكل جنازة شاهد قريب على هذه الحقيقة. لكن الإنسان يشيع غيره، ثم يعود إلى الدنيا كأن الموت خاص بمن مضى.

وما بين: (أَحْيَاكُمْ) و(يُمِيتُكُمْ) تقع قصة العمر كلها. طموحات وصراعات وأحزان وأفراح، ثم تطوى تحت فعل واحد. فكيف يجعل العاقل هذه المسافة القصيرة ميداناً للكبر والظلم، وهي محصورة بين عطية لم يصنعها ونهاية لا يستطيع دفعها؟

سُورَةُ الْحَجِّ

ثم يحييكم

لم يقل: ثم قد يحييكم، بل قررهما بالفعل:

(ثُمَّ يُحْيِيكُمْ).

البعث حقيقة لا احتمال. والذي بدأ الخلق لا يعجز عن إعادته، والذي أحيا الأرض بعد موتها يحيي من في القبور.

والعجيب أن الإنسان يقبل الإحياء الأول وهو يراه في نفسه، ثم يجادل في الثاني؛ مع أن إعادة المخلوق في قياس العقل ليست أعجب من إنشائه أول مرة، وكل ذلك على الله يسير.

وبهذا تعود السورة إلى بدايتها؛ بدأت بزلزلة الساعة، ثم أقامت البراهين على البعث في الجسد والأرض، وها هي الآن تختصر المسيرة كلها في ثلاثة أفعال إلهية متعاقبة. وكأنها تقول: وجودك كله بين يدي الله؛ البداية له، والنهاية بأمره، والعودة إليه.

إن الإنسان لكفور

بعد هذا الفيض من الإحياء والتسخير والحفظ، تأتي الخاتمة المؤلمة:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ).

جاءت صيغة المبالغة لتصوير كثرة الجحود وشدته. يعيش الإنسان بنعمة الحياة، على أرض مسخرة، تحت سماء ممسوكة، ويأكل من رزق الله، ثم يستخدم كل ذلك في نسيانه أو معصيته.

سُورَةُ الْحَجِّ

والكفر هنا يشمل جحود العقيدة، ويكشف كذلك أصل الكفران في الطبيعة الإنسانية إذا تُركت بلا تزكية: يرى ما فقد، وينسى ما أُعطي؛ يحتج بالألم الواحد، ويتعامى عن بحار العافية؛ يطلب المزيد، ولا يشكر الموجود.

ليس معنى الآية أن كل فرد قد استسلم لهذا الكفران، بل إنها تكشف قابلية راسخة في الإنسان ما لم يهذبه الوحي. فالشاكر هو من قاوم غفلة الطبع، وتعلم أن يقرأ المألوف بوصفه نعمة متجددة.

والشكر ليس قول: الحمد لله باللسان فحسب؛ بل أن يعرف القلب المنعم، ويثني عليه اللسان، وتستعمل الجوارح النعمة في طاعته. فمن حمد الله على الحياة ثم أهدرها في الباطل لم يستوف شكرها، ومن حمده على القوة ثم ظلم بها نقض معنى الحمد بفعله.

والحج كله مدرسة في هذا الشكر: حياة أنشأها الله، وجسد حملها، ومال أنفقها، وراحلة سخرها، وأمن حفظه، وهداية دلته على البيت. فإذا بلغ الحاج كل ذلك ثم قال: لبيك، فقد بدأ يعيد النعم إلى معناها الصحيح.

لكل أمة منسك: وحدة المعبود وتنوع الشرائع

بعد أن قررت السورة أن الله أحيا الإنسان ثم يميته ثم يحييه، عادت إلى قضية المناسك واختلاف الشرائع:

(لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ).

سبق أن قالت السورة:

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ).

وكان السياق هناك يبين وحدة المقصد وراء تنوع المناسك. أما هنا فتعود الحقيقة نفسها في مقام الرد على من جعل اختلاف الشرائع باباً للمنازعة في الرسالة الخاتمة.

إن الله هو الذي جعل لكل أمة منسكها وشرعتها في زمانها، فلا يكون اختلاف بعض الأحكام بين الرسالات حجة على بطلانها، ما دام المشرع واحداً والمقصد عبادة الله. فالطبيب الواحد قد يصف علاجاً مختلفاً باختلاف أحوال المرضى ومراحل العلاج، ولا يدل اختلاف الوصفة على تناقض علمه.

ولله المثل الأعلى؛ يشرع بعلمه وحكمته ما يلائم كل مرحلة من مراحل الرسالة، ثم ختم الشرائع بشريعة محمد ﷺ، فصار اتباعها هو مقتضى التسليم لله بعد بعثته.

جعلنا منسكًا

عاد الفعل:

(جَعَلْنَا).

فالنسك ليس عادة تصنعها الأمة ثم تمنحها قداسة، بل تشريع يتلقى عن الله. وحين تنقطع العبادة عن الوحي، يدخلها الهوى، ويزيد فيها الناس وينقصون بحسب أدواقهم، حتى تتحول من طريق إلى الله إلى صورة يعبد الإنسان فيها موروثة.

وقال:

(هُم نَاسِكُوهُ).

أي عاملون به ومتعبدون وفقه. وفي التعبير دلالة على اختصاص كل أمة بما شرع لها في وقتها؛ فلا يجوز لأهل الكتاب أن يجعلوا ما شرع لهم سابقًا حجةً لرد ما نسخه الله وأتمه بالرسالة الخاتمة.

إن الوفاء الحقيقي للرسل السابقين ليس في التوقف عند مرحلة من الوحي بعد مجيء خاتمته، بل في اتباع الرب الذي أرسلهم جميعًا.

فلا يَنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ

جاء النهي مؤكِّدًا بنون التوكيد:

(فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ).

ليس المقصود منع السؤال الصادق أو الحوار الباحث عن الحق، وإنما إبطال المنازعة التي تتخذ اختلاف المناسك ذريعةً للعناد بعد قيام الحجة.

والأمر هنا أمر الدين والشريعة والنسك. فهو ليس ملكًا لأهواء المتنازعين حتى يعيدوا تشكيله وفق رغباتهم؛ إنه أمر الله.

وفي الخطاب تثبيت للرسول ﷺ: لا تجعل كثرة المجادلين تزعزع يقينك، ولا تسمح لضجيج المنازعة أن ينقلك من موقع البلاغ إلى موقع الشك في أصل الرسالة.

وادع إلى ربك

بدل أن ينشغل الرسول بخصومات لا تنتهي، أمر بما بُعث لأجله:

(وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ).

ما ألطف الإضافة: (رَبِّكَ). ادع إلى من رباك بالوحي، وثبتك، وحفظ رسالتك، وهو الذي يملك قلوب المدعويين ومصائرهم.

سُورَةُ الْحَجِّ

ولم يقل: ادع إلى نفسك، أو جماعتك، أو سلطانك. الدعوة الربانية لا تجعل الداعية مركزاً؛ وظيفته أن يزيع الحجب بين الناس وربهم، ثم يتوارى قلبه عن طلب الحظ الشخصي.

ومن دعا إلى الله لا يغضب لنفسه كما يغضب للحق، ولا يقيس نجاح الدعوة بكثرة من يصفقون له، ولا يجعل قبول شخصه شرطاً لقبول الحقيقة.

إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ

قال سبحانه:

(إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ).

أكدت الجملة بأن واللام، وجاء حرف الاستعلاء: (عَلَىٰ)، كأن الهدى أرض ثابتة يقف عليها الرسول، أو مركب متمكن يحمله في طريقه. ليس متردداً بين احتمالات، بل على هدى مستوٍ لا اعوجاج فيه.

ووصف الهدى نفسه بالاستقامة؛ لأن الرسالة واضحة الوجهة متسقة الأصول: توحيد الله، وعبادته، وإقامة العدل، وتزكية الإنسان، والاستعداد للقاءه.

قد يبدو الطريق مستقيماً لكنه لا يوافق أهواء الناس؛ واستقامته لا تُقاس بمقدار رضاهم، بل بمصدره الإلهي ووصوله إلى الغاية.

قال تعالى:

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).

إن جادلوك بعد البيان، ولم يكن جدالهم طلباً للحق، فلا تجعل الدعوة رهينة مناقشة دائرية لا تريد أن تنتهي. قل كلمة تفوض الباطن والمآل إلى الله:

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ).

ليست هذه الكلمة هروباً من إقامة الحجة؛ فقد أُقيمت الحجة، وبيّن الوحي المعنى. لكنها حدٌ يوضع حين يتحول الحوار إلى مرأى يستنزف الوقت ويغذي الكبر.

من القول إلى العمل

قال: (بِمَا تَعْمَلُونَ)، مع أن السياق في الجدل. لأن الجدل نفسه عمل، ولأن العقيدة لا تنفصل عن آثارها. قد يزعم المجادل أن خلافه ذهني محض، لكن الله يعلم ما وراءه من صد عن السبيل، أو حفظ للمصلحة، أو خوف على المكانة.

الله لا يسمع العبارة وحدها، بل يعلم اليد التي تحركها، والقصد الذي يقف وراءها، والأثر الذي تتركه في الناس.

وفي الآية أدب للداعية: لا تدّع علم السرائر. بيّن فساد القول بالدليل، لكن لا تزعم أنك أحطت بما في قلب صاحبه؛ قل: الله أعلم بما تعملون. فالمصائر الفردية التفصيلية إلى علمه وحكمه.

الحكم الفاصل

ثم قال:

(اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

قد لا ينتهي كل خلاف في الدنيا، لا لنقص الحق، بل لأن بعض الناس لا يريدون الانتهاء إليه. وقد تبقى القضية مجال جدل حتى الموت، لكن القيامة تنهي ما لم تنه الحجة عند المعاند.

الحكم هناك ليس مجرد إعلان للطرف المصيب، بل جزاء على الموقف من الحق بعد قيامه. ويومئذ لا تنفع براعة الجدل، ولا كثرة الأتباع، ولا القدرة على تشويه الخصم؛ فالله لا يحكم على الخطاب الإعلامي، بل على الحقيقة كاملة.

فيما كنتم فيه تختلفون

الاختلاف البشري ليس كله مذموماً؛ فقد يقع في مسائل الاجتهاد التي تنتسح لها الأدلة، أو بسبب تفاوت الفهم. لكن الاختلاف في أصول الحق بعد مجيء البيان قد يتحول إلى انقسام أخلاقي يكشف القلوب.

سُورَةُ الْحَجِّ

والآية تربي المؤمن على أمرين متوازنين: أن يتمسك بما ظهر له من الحق، وأن يترك الفصل النهائي لله. فلا يذوب في النسبية كأن الحقيقة غير موجودة، ولا يتأله في الحكم كأن إليه مصائر العباد.

بعد الحديث عن علم الله بأعمالهم وحكمه بينهم، جاءت حجة الإحاطة:

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

قال: (أَلَمْ تَعْلَمْ)، والخطاب للرسول ﷺ، والمراد التقرير وتثبيت العلم في القلب. إن الحكم الإلهي الكامل قائم على علم كامل؛ فما في السماء والأرض داخل إحاطته.

لا تخفى عليه حركة نجم، ولا بذرة في ظلمة التراب، ولا دمعة في ظلمة الليل، ولا نية تختبئ وراء عبارة براءة.

ما في السماء والأرض

جاءت (مَا) عامة، لا تترك شيئاً خارج العلم. يعلم الموجودات وأحوالها، بداياتها ونهاياتها، الظاهر منها والباطن. وليس علمه مكتسباً بعد وقوع الأحداث، بل علم أزلي محيط لا يسبقه جهل، تعالى الله عن ذلك.

الإنسان يعرف بعد أن يتعلم، وينسى بعد أن يعرف، ويخطئ فيما يظن أنه أحاط به. أما علم الله فلا يتغير ولا ينقص، ولهذا كان حكمه عدلاً لا يعتريه ما يعتري القضاء البشري من نقص المعلومات.

إن ذلك في كتاب

قال تعالى:

(إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ).

كل ذلك مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوب بعلم الله قبل وقوعه. والكتابة لا تعني أن الإنسان مجبور لا اختيار له؛ فقد كتب الله بعلمه السابق ما سيختاره العباد، وأعطاهم إرادةً وقدرَةً تقع بهما مسؤوليتهم داخل مشيئته.

فلاحتجاج بالقدر على المعصية باطل؛ لأن الإنسان حين عصى لم يكن مطلعاً على الكتاب، وإنما اختار ما وافق هواه، ثم أراد أن يجعل علم الله حجةً على فعل نفسه.

والإيمان بالكتاب يمنح القلب طمأنينة: الأحداث لا تتساقط من فراغ، ولا يفاجئ الله شيء، ولا تضيع الوقائع من سجل الوجود. ما غاب عن ذاكرة البشر محفوظ، وما مُحي من الوثائق لا يمحي من علم الله.

على الله يسير

قال سبحانه:

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

قد يعجز العقل البشري عن تصور كيف يحيط علم واحد بكل ذرة وكل كائن وكل زمان، فيأتي الجواب: لا تقس قدرة الله بقدرتك. ما يبدو لك مستحيل الإحاطة يسير على من خلق الأشياء كلها.

سُورَةُ الْحَجِّ

والتعبير لا يعني أن هناك أمرًا عسيرًا على الله وهذا أيسر منه؛ بل كل شيء تحت قدرته لا يعجزه، وإنما يخاطب القرآن الإنسان بما يقرب المعنى إلى فهمه.

ثم تعود السورة إلى كشف بطلان الشرك:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ).

عرضت الآية فراغ الشرك من مصدرين للمعرفة: لا سلطان من الوحي، ولا علم صحيح من العقل أو الحس.

(مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا).

السلطان هو الحجة البينة التي تكون لها قوة على العقل. واختيار فعل (يُنَزِّلُ) يناسب مصدر التشريع الغيبي؛ فهل أنزل الله كتاباً يأمر بعبادة هذه الأوثان؟ هل بعث رسولاً يقرر أن لها من خصائصه شيئاً؟

لا أثر لوحى، ولا ظل لبرهان.

وما ليس لهم به علم

وليس لديهم كذلك علم صحيح يثبت دعواهم. فلم يشاهدوا تلك الآلهة تخلق، ولم يقيموا دليلاً على قدرتها، ولم يبرهنوا أن لها حق العبادة. إنهم يرثون أسماء وعادات، ثم يلبسون الموروث ثوب الحقيقة.

سُورَةُ الْحَجِّ

والقرآن هنا يؤسس قاعدة معرفية عظيمة: العقيدة لا تبنى على الظن والهوى والتقليد الأعمى. وما تعلق بالله والغيب والعبادة يحتاج إلى سلطان من الوحي، لا إلى حكايات شعبية أو انفعالات موروثة.

وليس صدق الشعور دليلاً كافياً على صدق المعتقد؛ فقد يخلص الإنسان لوهم. فالإخلاص مطلوب، لكنه لا يغني عن صحة الطريق. ومن سار بصدق كامل في جهة خاطئة ازداد بعداً كلما أسرع.

وما للظالمين من نصير

سمى الشرك ظلمًا؛ لأنه يضع العبادة في غير موضعها، ويسوي بين الخالق والمخلوق فيما لا يستويان فيه، ويهين النفس بإخضاعها للعاجز.

ثم نفى النصير عن الظالمين. والمفارقة أنهم عبدوا من دون الله طلبًا للنصرة، فإذا ما اتخذوه سندًا هو سبب خذلانهم. المعبود الباطل لا ينصر نفسه، فكيف ينصر عابده حين يقف بين يدي الله؟

كل سند منفصل عن الحق ينكسر عند الحاجة الكبرى إليه.

المنكر في الوجوه قبل أن ينطق اللسان

قال تعالى:

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَاذِبُونَ
يَسْطُورُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبِيئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

الآيات بينات، لكن الوجوه تستقبلها بالإنكار. وكأن السورة تريد أن تقول
مرة أخرى: المشكلة ليست في خفاء النور، بل في العين الباطنة التي لا
تريده.

تعرف في وجوههم المنكر

لم تقل: تسمع من ألسنتهم الإنكار، بل:

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ).

قبل أن يتكلموا، يطفو ما في القلوب على الملامح: عبوس، وغيظ، ونفور،
واستعلاء. للباطن لغة تسبق اللسان، والوجه صفحة تكتب عليها انفعالات
الروح.

وسمى ما يرى في وجوههم (الْمُنْكَرَ)، كأن المنكر نفسه قد تجسد في
اللامح. الآيات معروفة بالبيان، ووجوههم معروفة بالإنكار؛ مقابلة بين
نور يتلى وظلمة ترسم.

يكادون يسطون

قال تعالى:

(يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

السطو شدة البطش. حين يعجز الباطل عن مقارعة الحجة، قد ينتقل من منازل الفكرة إلى الاعتداء على حاملها. يريد إسكات اللسان لأنه لم يستطع إبطال ما يتلوه.

وهذه علامة ضعف لا قوة؛ فالحقيقة لا تحتاج إلى ضرب من يعارضها كي تثبت، أما الوهم فيخشى مجرد الصوت الذي يكشفه.

والعدوان هنا موجّه إلى التاليين، لكن السبب هو الآيات. إنهم يبطشون بالبشر لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى مصدر الوحي، ويحسبون أن إسكات القارئ يطفئ الكلام.

غير أن حملة القرآن يمضون، وتتبدل الأجيال، ويبقى المتلو محفوظًا. كم من يد امتدت إلى قارئ ثم شلتها الأيام، وظل القرآن يُقرأ!

أفأنبئكم بشر من ذلكم؟

يواجههم القرآن بما هو أشد:

(قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَمُ).

ذلكم الذي أثار غضبكم هو تلاوة الآيات عليكم. أنتم ترونه شرًّا يهدد أوثانكم ومصالحكم، لكن هل أخبركم بما هو شر حقيقي؟ ليس سماع الحق شرًّا، بل الشر أن ترفضوه حتى تبلغوا النار.

ثم جاء الجواب مباشرة:

(النَّارُ).

كلمة مفردة حاسمة، كأنها تقطع اندفاعهم وتضع أمامهم النهاية التي يسيرون إليها. النار شر من الغيظ الذي يجدونه عند سماع القرآن، وشر من انكسار كبريائهم أمام الحجة.

وعدها الله الذين كفروا

قال تعالى:

(وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا).

استعمل الوعد في العذاب، وهو قد يأتي في الخير والشر بحسب السياق. ونسبه إلى الله ليؤكد حتميته؛ فالذي وعد لا يخلف وعده.

سُورَةُ الْحَجِّ

لكن الوعيد نفسه رحمة ما دام يُسمع في الدنيا؛ إذ يستطيع من خُوطب به أن يفر من النار إلى الله قبل أن يصل إليها. إن القرآن لا يغلق عليه الطريق، بل يخبره بالنهاية كي يغيّر المسار.

ثم قال:

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

بئس المكان الذي يصير إليه من جعل الآيات عدوه، وحامل الوحي خصمه، والبطش جوابًا عن البيان. لقد اختار أن يغلق قلبه عن النور، فانتهى إلى نار لا يجد منها مخرجًا.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الستون

مَثَلُ الذِّبَابِ: حِينَ يُهْزَمُ الْإِلَهَةُ أَمَامَ أَضْعَفِ جُنُودِ اللَّهِ

بعد أن كشفت السورة خلوّ الشرك من البرهان، وعجز أصحابه عن مقابلة الآيات إلا بالغيظ والبطش، ضربت للناس مثلاً يهدم الأوثان من جذورها:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذِّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ).

عاد النداء الإنساني العام للمرة الأخيرة في السورة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ).

فالقضية ليست شأنًا خاصًا بطائفة، بل نداء للعقل البشري كله: انظروا في حقيقة ما تعبدون، ولا تسلموا أشرف ما فيكم — القلب والعقل والإرادة — لما لا يملك أدنى مقومات الألوهية.

ثم قال:

(ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ).

لم يقل: فاسمعوه، بل: (فَاسْتَمِعُوا لَهُ). فالاستماع إصغاء مقصود، لا مجرد وقوع الصوت في الأذن. كأن المثل سيكشف حقيقةً حجبته العادة وهيبة الموروث، فلا يليق أن يمر به الإنسان مرور الغافل.

سُورَةُ الْحَجِّ

وفي تقديم الأمر بالاستماع تشويق ومهابة؛ فالنفوس تنهياً لشيء عظيم، ثم تفاجأ بأن موضوع المثل ذباب!

وهنا تبلغ البلاغة ذروة الإحكام؛ فالآلهة المزعومة التي أحاطها الناس بالتقديس لا تحتاج إلى مخلوق ضخم ليظهر عجزها، بل يكفي ذباب صغير تحتقره العيون.

لن يخلقوا ذباباً

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا).

جاء النفي بـ(لَنْ) ليقطع طمعهم في وقوع الخلق منهم في المستقبل كما لم يقع في الماضي. والخلق إيجاد على غير مثال سابق، ونفخ لسر الحياة، وتركيب لنظام بالغ الدقة في جسد صغير.

قد يصنع الإنسان صورة الذباب، أو يجمع مواد، أو يحاكي بعض وظائفه، لكنه لا يخلق المادة ولا قوانينها ولا سر الحياة من العدم.

واختيار الذباب يجمع بين صغره في أعين الناس ودقة تكوينه. إن ضعف إدراك الإنسان للتعقيد لا يعني بساطة المخلوق. فما تزدريه العين قد تحمل كل خلية فيه شاهداً على علم لا تحده العقول.

إذا عجزت الآلهة المزعومة عن خلق ذباب واحد، فكيف تُدعى لكشف الضر، وإنزال الرزق، وتدبير المصير؟

ولو اجتمعوا له

يزيد المثل قوة:

(وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ).

لم ينف الخلق عن كل معبود منفردًا فقط؛ بل جمعهم جميعًا، بما ينسب إليهم عابدهم من قوى، ثم أعلن أن اجتماعهم لا يخلق ذبابًا.

إن العجز إذا اجتمع إلى العجز لا يصير قدرة. وكثرة الباطل لا تمنحه حقيقة، كما أن اجتماع الأصفار لا يصنع عددًا ما لم يسبقها ما يمنحها القيمة.

وفي الآية هدم لوهم الاستقواء بالكثرة. قد يقول الإنسان: هذه عقيدة أمم، ورثتها أجيال، واجتمع عليها جمهور؛ لكن الحقيقة لا تُخلق بالتصويت، والألوهية لا يمنحها اجتماع العابدين.

حين يصبح الذباب هو الغالب

ثم لا يقف المثل عند عجزهم عن الخلق، بل ينقلهم إلى مرتبة أدنى:

(وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ).

ليسوا عاجزين عن خلق الذباب فقط؛ بل إذا أخذ منهم شيئًا عاجزوا عن استرداده. انتقلت الصورة من عجز إيجابي عن الإيجاد إلى عجز دفاعي عن الاستنقاذ.

والذباب هنا هو الفاعل: (يَسْلُبُهُمْ). والمعبودات هي المسلوبة. يا لانقلاب المقاييس! الذي نُصب ليجلب النفع ويدفع الضر لا يستطيع أن يحمي ما وُضع عليه من طيب أو طعام من ذبابة.

واختيار (يَسْتَنْقِذُوهُ) أبلغ من أن يقال: يأخذوه؛ فالاستنقاذ طلب تخلص الشيء من يد غالب. وكأن الذباب صار مالكا لما أخذ، وهذه الآلهة في مقام العاجز الذي يحاول الإنقاذ فلا يستطيع.

ضعف الطالب والمطلوب

ختم المثل بحكم جامع:

(ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ).

قيل: الطالب هو العابد الذي يطلب حاجته من الصنم، والمطلوب هو المعبود العاجز. وقيل: الطالب المعبود الذي يطلب استنقاذ ما أخذه الذباب، والمطلوب الذباب أو الشيء المسلوب. وتتسع العبارة لهذه الظلال جميعاً، وتظل النتيجة واحدة: دائرة كاملة من الضعف.

ضعف العابد لأنه تعلق بالعاجز، وضعف المعبود لأنه لا يخلق ولا يسترد، وضعف ما يتنازعون عليه أمام قدرة الله.

إن الشرك لا يمنح الضعيف قوة، بل يضاعف ضعفه؛ إذ يضيف إلى عجزه الطبيعي عجزاً معرفياً وروحياً، فيطلب النجاة ممن يحتاج إلى النجاة.

بعد أن أظهر المثل ضعف المعبودات، كشف أصل الخلل في نفوس عابديها:

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).

لم يعرفوا الله المعرفة التي تليق بجلاله، ولم يعظموه حق التعظيم، حين
سواوا به مخلوقات لا تخلق ذباباً.

فالشرك ليس مبالغة في تقدير المخلوق فقط، بل نقص في معرفة الخالق.
ولو عرف القلب شيئاً من عظمة الله، لاستحيا أن يجعل له ندّاً من حجر أو
بشر أو قوة محدودة.

حق قدره

لا يستطيع البشر الإحاطة بالله علماً، ولا بلوغ غاية الثناء عليه؛ هو كما
أثنى على نفسه، سبحانه ليس كمثله شيء. لكنهم مأمورون أن يعرفوه بما
عرّف به نفسه، وأن ينزهوه عن النقص والشبيه والشريك، وأن يفردوه
بالعبادة.

ومن حق قدره أن تعلم أن أمره فوق الهوى، ووعدّه أصدق من المحسوس
العاجل، وقدرته فوق الأسباب، وعلمه محيط بسريرتك، ورحمته أوسع من
ذنب التائب، وعدله لا يضيع عنده مظلوم.

سُورَةُ الْحَجِّ

وقد يقول اللسان: الله أكبر، بينما يعامل القلب بعض الأشياء كأنها أكبر: يخاف الناس أكثر من خوفه لله، ويضحى بالحق لئلا يفقد رزقاً، ويرى أمر صاحب النفوذ نافذاً وأمر الله قابلاً للتأجيل.

التكبير الصادق ليس صوتاً مرتفعاً وحده؛ بل أن يصغر كل شيء في ميزان القلب إذا وقف أمام أمر الله.

قوي عزيز

قال سبحانه:

(إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).

جاء الاسمان في مقابلة صريحة مع: (ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ). هناك ضعف متبادل، وهنا قوة مطلقة. هناك معبود يُسلب فلا يستنقذ، وهنا عزيز لا يُغلب ولا يمتنع عليه شيء.

والعزيز لا يحتاج إلى شريك يعينه، ولا إلى وسيط يكمل نقصاً، ولا إلى ولد يمتد به؛ فكل هذه حاجات المخلوقين، والله غني عنها.

ومن اتصل بالقوي العزيز بالإيمان، لم تصبح قوته ذاتية مطلقة، لكنه وجد ركناً لا ينهار. أما من تركه وتعلق بالضعفاء، فقد استبدل بمنبع القوة سلسلة من العجزة.

قال تعالى:

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

بعد الحديث عن المعبودات التي اخترعها الناس بلا سلطان، يأتي بيان الطريق الصحيح بين السماء والأرض: الرسالة ليست اختراعاً بشرياً ولا وثنية وسطاء، بل اصطفاء من الله.

يصطفي من الملائكة رسلاً يبلغون وحيه إلى رسله من البشر، ويصطفي من الناس رسلاً يبلغون أمره إلى الخلق. فالطريق إلى معرفة مراد الله ليس الأساطير، ولا ادعاءات الكهان، ولا الأهواء؛ بل وحي يحمله من اصطفاهم الله.

يصطفي

الاصطفاء اختيار الصفة الخالصة. والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يكتسب الإنسان النبوة بالرياضة أو الطموح، ولا تختاره قبيلته بالتصويت؛ إنها فضل إلهي واختيار حكيم.

وهذا يهدم اعتراض من قالوا: لماذا نزل القرآن على هذا الرجل؟ لقد قاسوا الاختيار الإلهي بموازين المال والوجاهة، بينما الله ينظر إلى صفاء المحل واستعداده لحمل الأمانة.

سُورَةُ الْحَجِّ

والاصطفاء لا يجعل الرسول شريكاً لله؛ بل عبداً مكرماً بالرسالة. فالملائكة والأنبياء جميعاً مصطفون من الخلق، لا يملكون من خصائص الألوهية شيئاً.

وتلك دقة التوحيد: نحب الرسل، ونعظمهم، ونتبعهم، لكننا نعبد الذي أرسلهم.

من الملائكة ومن الناس

جمعت الآية طرفي رحلة الوحي: ملَكًا يحمل الرسالة من المَلَأِ الأعلى، وبشرًا يتلقاها ويبلغها للناس. فالرسالة ربانية المصدر، بشرية التبليغ والتطبيق.

ولو كان الرسول ملَكًا محضًا لقال الناس: كيف نقنّدي بمن لا يعيش ضعفنا وحاجتنا؟ فجعل الله من الناس رسلاً يأكلون ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ويصبرون على الأذى، حتى تتحول الهداية إلى نموذج يمكن للبشر اتباعه.

سميع بصير

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

سميع لما يبلغه الرسل وما يجيب به الناس، بصير بأحوال من يصطفاهم وبأعمال المكلفين. لا يحتاج إلى الوسطاء ليعلم، وإنما يرسلهم رحمةً بالخلق وإقامةً للحجة.

سُورَةُ الْحَجِّ

وهو يسمع افتراءات المكذبين على رسله، ويبيصر أذاهم وصبرهم؛ فلا يضيع شيء من طريق الدعوة.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل الثالث والستون

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

قال سبحانه:

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

علمه يحيط بالمرسل والمرسل إليهم، وبماضيهم ومستقبلهم، وبما ظهر وما خفي. وعبرة:

(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

تستوعب جهات الوجود والزمن التي تحيط بالمخلوق بينما يحيط بها علم الخالق.

الإنسان يرى مساحة محدودة أمامه، ويحمل وراءه ماضيًا ينسى بعضه، ويجهل ما ينتظره بعد لحظات. أما الله فلا يحجبه مستقبل لم يقع عن العلم، ولا ماضٍ انقضى عن الحفظ.

الرسالة داخل العلم المحيط

هذا العلم هو ضمانات الاصطفاء والوحي. فالذي اختار الرسل لم يختبرهم عن تجربة ناقصة، والذي أنزل التشريع يعلم ما كان وما سيكون، ويعلم طبيعة الإنسان التي خلقها.

سُورَةُ الْحَجِّ

ولهذا لا يكون الوحي ابن لحظة تاريخية عمياء؛ يخاطب الإنسان الذي يعلم الله ثوابته وتحولاته، ويضع له الأصول التي تهديه عبر الأزمنة.

وإلى الله ترجع الأمور

لم يقل: يرجع الناس فقط، بل:

(تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

كل قضية، وكل دعوة، وكل خصومة، وكل تاريخ، وكل قوة، تعود إلى حكمه. قد تنتشعب الأحداث حتى تبدو بلا مركز، لكنها لا تخرج من قبضة التدبير، وستنتهي إلى الفصل الإلهي.

وفي تقديم (إِلَى اللَّهِ) حصر للمرجع الأخير. لا ترجع الأمور إلى السوق، ولا إلى الطاغية، ولا إلى رأي الجمهور، وإن بدت هذه قوى مؤثرة في مراحل الطريق. المرجع النهائي لله.

الفصل الرابع والستون

اركعوا واسجدوا: الخاتمة التي تتحول فيها المعرفة إلى عبادة

بعد رحلة السورة الطويلة بين زلزلة الساعة، وبراهين البعث، والحج، والشعائر، والتوحيد، والجهد، وسنن التاريخ، تخاطب المؤمنين بنداء جامع: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

بدأت السورة بنداء:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ).

وتقترب من ختامها بنداء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا).

الأول دعا الإنسانية إلى التقوى أمام زلزلة الساعة، والثاني دعا الجماعة المؤمنة إلى تجسيد التقوى في الركوع والسجود والعبادة وفعل الخير.

كان الإيمان الذي استجاب للنداء العام صار الآن أهلاً لتكليف خاص: لقد عرفتم ربكم ومصيركم، فحوّلوا المعرفة إلى سجود، واليقين إلى عمل.

سُورَةُ الْحَجِّ

اركعوا واسجدوا

بدأ بحركتين من الصلاة:

(ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا).

الركوع انحناء، والسجود غاية الخضوع. والجسد هنا يعبر عن حقيقة القلب: ليس فيك عضو ينبغي أن يستكبر على الله، حتى وجهك الذي تحفظ به كرامتك بين الناس ضعه على الأرض لربك.

وقد مرت في السورة سجدة الكون:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ).

وهنا يأتي الأمر للمؤمنين أن يلتحقوا بذلك الموكب: اسجدوا باختياركم كما خضع الكون بتكوينه، ولا تكونوا نشازاً في محراب الوجود.

واعبدوا ربكم

الركوع والسجود جزء من العبادة، فلماذا عطف الأمر العام عليهما؟

لأن العبادة أوسع من الصلاة؛ إنها اسم لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. يعبد المؤمن ربه في المسجد، وفي السوق حين يصدق، وفي البيت حين يرحم، وفي الحكم حين يعدل، وفي الخصومة حين يقف عند الحد، وفي القوة حين ينصر المظلوم.

سُورَةُ الْحَجِّ

وقال: (رَبَّكُمْ)، يستحضر معنى التربية والعناية. الذي تعبدونه هو الذي خلقكم من تراب، وأخرجكم أطفالاً، وأنزل الماء، وسخر الأنعام والفلك، وأمسك السماء. العبادة ليست خدمة يقدمها العبد لغني عنها فحسب، بل استجابة شكر لمن غمره بالتربية.

وافعلوا الخير

ثم يفتح الأمر أوسع أبواب العمل:

(وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ).

لم يحصر الخير في صورة واحدة؛ ليشمل كل معروف نافع أذن به الشرع: إطعام جائع، ونصرة مظلوم، وتعليم جاهل، وإصلاح متخاصمين، وكلمة طيبة، ووفاء بعهد، ورحمةً بضعيف، ودفاعاً عن الحق.

قال: (أَفْعَلُوا)، فالخير ليس فكرة جميلة تزين الذهن، ولا عاطفة لا تغادر الصدر. ينبغي أن يتحول إلى فعل يراه المحتاج في حياته.

والدين الذي بدأ بالركوع والسجود خرج مباشرةً إلى فعل الخير؛ فلا انفصال بين المحراب والمجتمع. السجود الصادق يلين القلب، والقلب اللين تمتد منه يد الرحمة.

لعلكم تفلحون

الغاية:

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

الفلاح أوسع من النجاح العابر؛ إنه الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب والبقاء في الخير. وقد ينجح إنسان في مشروع ويفشل في معنى وجوده، وقد يكسب معركة ويخسر نفسه. أما الفلاح فهو أن يستقيم الطريق والمصير معًا.

وطريقه في الآية واضح: عبادة الله وخير للخلق. اتصال بالمصدر، وإفاضة على العالم. ركوع يحرر من الكبير، وسجود يملأ القلب بالقرب، وعمل خير يجعل الإيمان رحمةً منظورة.

الفصل الخامس والستون

وجاهدوا في الله حق جهاده

ثم تأتي الآية الختامية الجامعة:

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ).

الجهاد بذل الوسع في مقاومة ما يحول بين الإنسان وبين طاعة الله، ويشمل جهاد النفس والشيطان والباطل، ويدخل فيه القتال المشروع الذي فصلت السورة علته وضوابطه.

ولم تقل: جاهدوا لله فحسب، بل:

(فِي اللَّهِ).

وهو تعبير يغمر الجهاد بالإخلاص؛ ليكون سعيكم واقعًا في مرضاته، محاطًا بأمره، متجهًا إليه. فلا جهاد للهوى أو العصبية أو الغنيمة أو الشهرة، ثم يُرفع عليه اسم الله.

إن القضية العادلة قد يفسدها قلب يطلب ذاته، والمنهج الحق قد تلوثه وسيلة باطلة. لذلك لم تأمر السورة بالجهاد حتى بنت قبله التوحيد والتقوى وتعظيم الحرمات والإخبات والعدل.

حق جهاده

كيف يؤدي المحدود حق جهاد العظيم؟ المعنى: ابدلوا غاية ما تستطيعون في صدق وإخلاص وفق الطاقة، ولا تدخروا وسعاً في نصره الحق.

وليس المقصود تكليف النفس بما لا تطيق؛ فبقية الآية ستقرر رفع الحرج. إنما المقصود ألا يكون الدين على هامش الحياة، يأخذ الإنسان منه ما وافق راحته ويترك ما كلفه تضحية.

حق الجهاد أن تجاهد نفسك حين تشتهي الحرام، وكبرك حين يؤلمك الاعتذار، وخوفك حين يجب قول الحق، وشحك حين يناديك الفقير، وغضبك حين يوشك أن يخرجك من العدل.

والجهاد الخارجي الذي لا يسبقه شيء من هذا قد يتحول إلى امتداد لأمراض النفس تحت شعار مقدس.

هو اجتنابكم: التكليف الذي يبدأ بالتكريم

قال سبحانه:

(هُوَ اجْتَنَبَاكُمْ).

بعد الأمر العظيم بالجهد، لم يتركهم أمام ثقل التكليف وحده، بل ذكرهم بالاختيار والتكريم. اجتنابهم لحمل الرسالة والشهادة على الناس، وهداهم إلى ملة إبراهيم، وجعلهم من أمة الإسلام.

الاجتناب ليس امتيازاً عرقياً يمنحهم حق الاستعلاء، بل مسؤولية أخلاقية. لم يُختاروا ليقولوا نحن أفضل ثم يقعدوا، بل ليحملوا النور إلى الناس، ويقيموا العدل، ويكونوا نموذجاً لهداية الوحي.

وكل تشريف في القرآن يحمل في داخله تكليفاً. من أعطي علماً اجتنباه الله لمسؤولية البيان، ومن أعطي مالاً لمسؤولية البذل، ومن أعطي قوةً لمسؤولية الحماية.

وما جعل عليكم في الدين من حرج

قال تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ).

الحرج هو الضيق الشديد. والدين في أصوله وتكاليفه قائم على اليسر ورفع المشقة غير المعتادة، وإن كانت فيه تكاليف تحتاج إلى صبر ومجاهدة.

سُورَةُ الْحَجِّ

فاليسر لا يعني أن كل طاعة توافق الكسل، ولا أن طريق الحق بلا ألم. الحج فيه سفر، والصيام فيه جوع، والجهاد فيه مخاطرة، لكن ذلك كله داخل طاقة الإنسان، وتصحبه رخص عند العجز والمرض والسفر والضرورة.

هناك فرق بين المشقة التي تصنع الإنسان والحرص الذي يحطمه. شرع الله الأول بقدر، ورفع الثاني برحمته.

ومن حوّل الدين إلى شبكة تعقيد لا تنتهي، أو ضيق على الناس فيما وسع الله، لم يفهم هذه الآية. كما أن من جعل رفع الحرج ذريعةً لإسقاط التكاليف لم يفهمها كذلك. اليسر هو أداء أمر الله على الوجه الذي شرعه، لا على الوجه الذي يقترحه الهوى.

سُورَةُ الْحَجِّ
الفصل السابع والستون
ملة أبيكم إبراهيم

قال تعالى:

(مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ).

هذا الطريق ليس غريباً مستحدثاً؛ إنه امتداد لملة إبراهيم، إمام الحنفاء، الذي قام البيت على يديه، وأذن في الناس بالحج، وأخلص وجهه لله.

ووصفه بالأبوة للأمة؛ أبوة الإيمان والقُدوة، وللعرب من جهة النسب في إسماعيل عليه السلام. وهذه الأبوة ليست عصبيةً للدم، بل انتساب إلى منهج: التوحيد، والاستسلام، والبراءة من الشرك.

إنه الأب الذي ترك قومه حين أصرّوا على الوثنية، وكسر هيبة الأصنام، وهاجر إلى ربه، وأسكن من ذريته عند البيت، وأسلم وجهه للابتلاء. فمن انتسب إليه حقاً ورث توحيده، لا مجرد اسمه.

والحج استعادة حية لهذه الذاكرة: مقام إبراهيم، والبيت، والتلبية، والهدي؛ كل ذلك يعيد الأمة إلى اللحظة التي وقف فيها رجل واحد في وجه عالم من الأوثان، فصار إخلاصه أمة.

سُورَةُ الْحَجِّ

الفصل الثامن والستون

هو سماكم المسلمين

قال سبحانه:

(هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا).

يحتمل الضمير أن يعود إلى الله تعالى، وهو الأظهر في السياق: سماكم المسلمين في الكتب السابقة وفي هذا القرآن، كما يحتمل عند بعض المفسرين عوده إلى إبراهيم في دعائه. وعلى كلا الوجهين، فالاسم متصل بالإسلام لله لا بعصبة بشرية.

(الْمُسْلِمِينَ): الذين أسلموا وجوههم لله، وانقادوا له، ووحدوه. هذا الاسم ليس لقباً للزينة، بل عهد يطالب صاحبه أن يطابق سلوكه معناه.

قد يحمل الإنسان اسم الإسلام، ويبقى في داخله موضع لم يسلم: مال يرفض فيه حكم الله، أو خصومة لا يقبل فيها العدل، أو هوى يريد أن يكون له الأمر. لذلك يحتاج المسلم كل يوم إلى تجديد إسلامه.

والاسم الذي منحه الله أعظم من الأسماء التي تصنعها العصبية. فلا ينبغي أن تضيق هوية الأمة بحزب أو عرق أو وطن حتى يصير ولاؤها له مقدماً على الحق الجامع.

من قبل وفي هذا

إنها أمة موصولة بتاريخ النبوات، لا مقطوعة الجذور. الإسلام في أصله دين الأنبياء جميعاً: إخلاص العبادة لله والانقياد له، وإن اختلفت بعض الشرائع.

وفي هذا ما يحرر الأمة من ضيق اللحظة؛ فهي تحمل أمانة سار بها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. ليست رسالتها صراعاً على مجد قومي، بل استمراراً لنداء السماء إلى البشر.

ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس

قال الله تعالى:

(لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ).

هذه هي غاية الاجتهاد والتسمية: الشهادة.

الرسول ﷺ شهيد على الأمة أنه بلغها الرسالة، وشاهد على استجابتها. والأمة شهيدة على الناس بما حملت من الوحي وبلغت من الحق، وتشهد للرسول أنهم أدوا الأمانة.

لكن الشهادة لا تكون بالكلام وحده؛ ينبغي أن تتجسد الرسالة في حياة الأمة حتى يصير وجودها برهاناً على إمكان العدل والرحمة والتوحيد.

إذا دعت الأمة إلى الصدق وكذبت، أو إلى العدل وظلمت، أو إلى الرحمة وقست، ضعفت شهادتها في واقع الناس، وإن بقي الحق الذي تحمل نصوصه كاملاً.

الشهادة مسؤولية لا سيادة

قد تفهم النفس المريضة قوله: (شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) على أنه تفوق يمنحها حق التكبر. لكن الشاهد في المحكمة خادم للحقيقة، لا مالك للمتهمين. مهمته أن يؤدي ما علم بأمانة، لا أن يضع نفسه مكان القاضي.

سُورَةُ الْحَجِّ

فالأمة لا تملك مصائر الناس، ولا تهدي القلوب من ذاتها؛ إنما تبليغ، وتبيين، وتقيم النموذج، وتترك الحكم لله.

ولكي تكون شهادتها مقبولة، تحتاج إلى علم يقيها التحريف، وعدل يقيها الهوى، ورحمة تجعلها تريد النجاة للمدعوين لا الانتصار عليهم.

سُورَةُ الْحَجِّ الفصل السابعون

فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ

بعد ذكر الشهادة الكبرى، أعاد القرآن الأمة إلى ركائزها العملية:

(فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ).

الفاء تربط المهمة بوسائل القيام بها. لا تستطيع الأمة أن تشهد على الناس بقوتها المجردة، بل تحتاج إلى صلة بالله، وتكافل بين أبنائها، واعتصام يحفظها من التفرق والسقوط.

أَقِمْوَا الصَّلَاةَ

الصلاة هي مورد الروح في طريق الشهادة. فمن وقف طويلاً أمام الناس ولم يقف بين يدي الله، استعبدته نظراتهم. ومن سجد لله تحرر من طلب سجودهم المعنوي له.

وإقامة الصلاة تعيد للأمة مركزها مرات في اليوم: الله أكبر من السياسة، وأكبر من السوق، وأكبر من الخوف، وأكبر من الخلافات التي تمزقها.

وَآتُوا الزَّكَاةَ

الزكاة برهان أن وحدة القبلة تصنع وحدة المسؤولية. لا معنى لصفوف متراسة في المسجد إذا ترك أغنياءها فقراءها يتساقطون خلفها.

سُورَةُ الْحَجِّ

الصلاة تصل الأرض بالسماء، والزكاة تصل القادر بالمحتاج. وباجتماعهما يتكون المجتمع الذي يعبد الله ويرحم عباده.

وقد تكرر اقترانهما في آية التمكين، وها هما يعودان في خاتمة السورة؛ فكأن صلاح الأمة في الضعف والقوة، وفي الدعوة والحكم، متعلق بأن يبقى محرابها قائماً وحق فقيرها مصوناً.

واعتصموا بالله

الاعتصام هو الالتجاء إلى ما يحمي من السقوط. ولم يقل: اعتصموا بقوتكم أو كثرتم أو أنسابكم، بل:

(وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ).

كل أسباب الأرض قد تنقطع، أما حبل الله فلا ينقطع. والاعتصام به يشمل التوكل عليه، والتمسك بوحيه، وطلب نصره، ورد الخلاف إلى حكمه.

لا يعني الاعتصام ترك الأسباب؛ فالذي أمرهم به هو الذي أذن بالقتال وأمر بالعمل. لكن المعنى ألا تتحول الأسباب إلى أرباب، وألا يرى الإنسان نجاته فيها مستقلةً عن الله.

والأمة التي تعتصم بالمال يمزقها المال، والتي تعتصم بالقومية تضيق بمن لا ينتمي إليها، والتي تعتصم بالأشخاص تنهار إذا غابوا. أما الاعتصام بالله فيجمعها على الحق الذي لا يموت بموت البشر.

تأتي آخر كلمات السورة:

(هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ).

يا لها من خاتمة تجمع الرحلة كلها في علاقة واحدة: هو مولاكم.

المولى هو القريب المتولي لشأن عبده، الناصر له، القائم عليه. ليست العبودية لله علاقة خوف مجرد، بل ولاية وقرب ونصرة ورعاية.

بدأت السورة بقول الله:

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ).

وانتهت بقوله:

(هُوَ مَوْلَاكُمْ).

بين التقوى والولاية تمتد الرحلة. تخافه لجلاله، وتأنس به لقربه؛ تسجد لعظمته، وتعتصم برحمته؛ تجاهد في سبيله، وتعلم أنك لا تترك وحدك في الطريق.

فنعم المولى

كل مولى من الخلق محدود؛ قد يحبك ولا يستطيع نصرك، وقد يستطيع نصرك مرة ثم يعجز، وقد يتغير قلبه، أو يسبقك إلى الموت.

أما الله فنعم المولى؛ يعلم ما لا تستطيع شرحه، ويرى ما لا يراه أقرب الناس، ويقدر حين يعجز الجميع، ويبقى حين يرحل كل صاحب.

وتتردد هنا أصدااء الآية التي ذمت المعبود الباطل:

(لَبِئْسَ الْمُؤَلَّى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ).

هناك مولى عاجز يورث عابده الضلال، وهنا الله نعم المولى. السورة تضع القلب بين الولايتين ليختار: ولاية الوهم الذي لا ينفع، أم ولاية الحق القوي العزيز؟

ونعم النصير

النصير الذي لا يخذل من صدق معه، وإن جاءت نصرته على غير الصورة التي توقعها. ينصر عبده على نفسه، وعلى الشيطان، وعلى الخوف، وعلى الباطل؛ وينصر دمه بأن يجعله حياةً لقضية، وينصر كلمته بعد رحيله، وينصره يوم القيامة حين ينقطع كل ناصر.

والختام بالنصرة يعيدنا إلى قلب السورة:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا).

وإلى وعدّها:

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ).

فما بين الدفاع والنصر والولاية بناء كامل للطمأنينة. لكن هذه الطمأنينة ليست دعوة إلى القعود؛ فقد سبقتها الأوامر: اركعوا، واسجدوا، وابدؤوا، وافعلوا الخير، واجاهدوا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واعتصموا.

إن الله نعم النصير، ولذلك يعمل المؤمن ولا ييأس. وهو نعم المولى، ولذلك يبذل ولا يستوحش.

من زلزلة الساعة إلى سكينة الولاية

بدأت سورة الحج والأرض تزلزل:

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ).

وانتهت والقلب ممسك بولي لا يتزلزل سلطانه:

(هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ).

وبين الافتتاح والختم بنت السورة للإنسان طريق الثبات في عالم مضطرب.

أرته بدايته من تراب، وأطواره في الرحم، وضعفه طفلاً، وقوته المؤقتة، وعودته إلى أرذل العمر، ثم موته وبعثه؛ لكي يسقط وهم استقلاله.

وأرته الأرض هامة ثم مخضرة، والليل داخلاً في النهار، والفلك جاريةً في البحر، والسماء ممسوكةً فوقه؛ لكي يعرف أن الكون ليس آلة عمياء، بل ملك يجري بأمر الله.

ثم دعته إلى البيت العتيق، لا ليعبد حجراً، بل ليعيد ترتيب مركزه حول رب البيت. ألبسته التجرد، وأسمعته التلبية، وأوقفته بين الجموع، وأمرته أن يذكر اسم الله على ما رزقه، ويطعم البائس الفقير، ويطهر قلبه من الأوثان ولسانه من الزور.

سُورَةُ الْحَجِّ

وعلمته أن تعظيم الشعائر من تقوى القلوب، وأن اللحوم والدماء لا تنال الله، وإنما يناله إخلاص العبد وتقواه. فلا يغتر بالشكل، ولا يهدم الشكل باسم الروح؛ بل يجمع بين شعيرة صحيحة وقلب حي.

ثم أخرجته من المشاعر إلى معركة الحياة. أذن للمظلوم أن يدافع عن نفسه، وبيّن أن القتال ليس شهوة دم، بل حماية لحق الناس في أن يُذكر اسم الله في الصوامع والبيع والصلوات والمساجد. ووضع القوة تحت ميزان العدل، وجعل غاية التمكن صلاةً وزكاةً ومعروفًا يقام ومنكرًا يُدفع.

وهكذا تناغمت العقيدة والحج والجهاد والدعوة في نسيج واحد:

التوحيد يحرر القلب من عبادة غير الله.

والحج يجسد هذا التحرر في هيئة الإنسان وحركته واجتماعه.

والجهاد يحمي حرية العبودية من الطغيان الذي يريد احتكار الضمائر.

والدعوة تحمل هذا النور إلى الناس بالحجة والرحمة.

والشهادة تجعل الأمة مسؤولة عن أن تحول الوحي إلى نموذج حي.

ليست هذه موضوعات متفرقة جُمعت في سورة واحدة؛ إنها ثمار حقيقة واحدة: أن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

سُورَةُ الْحَجِّ

فإذا كان الله هو الحق، كان البعث حقًا، وكان البيت بيته، والنسك له، والدم لا يراق إلا باسمه، والقوة لا تستعمل إلا وفق أمره، والعدل لا يخضع للهوى، والدعوة إليه لا إلى الذات، والعاقبة له، والاعتصام به.

ولذلك كانت سورة الحج سورة العبودية المتحركة. لا تترك الإيمان ساكنًا في الذهن، بل تحوله إلى خوف من الساعة، ونظر في الخلق، وسجود، وطواف، وهدي، وإطعام، ودفاع، وتمكين، وشهادة، واعتصام.

إن الحج الذي تصنعه السورة لا ينتهي عند مغادرة مكة. الحاج الحق يعود وقد تغير مركز حياته: لا يطوف حول ذاته بعد أن طاف بأمر الله، ولا يلبس كبره بعد أن خلعه مع ثيابه، ولا يحتقر فقيرًا أطعمه من نسكه، ولا يبيع توحيده لطاغية بعد أن لبي: لا شريك لك.

وحين تضطرب الأرض تحت قدميه، أو تضطرب الحياة من حوله، يتذكر أن الثبات ليس في الأرض؛ فالأرض نفسها ستزُلزل. الثبات في المولى الذي يمسك السماء، ويحيي الموتى، ويدافع عن المؤمنين، ويحكم بين المختلفين، وإليه ترجع الأمور.

وهذه هي الرحلة الكبرى في سورة الحج: أن يخرج الإنسان من كل ما يتزلزل، ويعتصم بمن لا يزول؛ وأن يحج بجسده مرةً إلى البيت، ويحج بقلبه في كل يوم إلى الله.

(هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ).